الدكتور مازن شندب

داعش

ماهيته، نشأته، إرهابه، أهدافه، استراتيجيته

لا إله إلا الله





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.


مكتبة
طريق العلم

داعش

دراسة أكاديمية وصفية تحليلية حول
ماهية داعش، نشأته، إرهابه، أهدافه، استراتيجيته

الدكتور مازن شندب

باحث متخصص في قضايا الإرهاب

E-mail: Dr.mezenchendeb@gmail.com

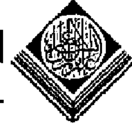


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
2014 م - 1435 هـ

ردمك 978-614-01-1365-7



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **سامح الخلف**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

إهــداء

إلى أمي...

تلك المرأة، التي بقدر ما حاول القدر إرهاب عنفوانها ورسالتها، سأبقى سفيراً لدمعتها ولدمعة كل أم في كل العالم، نال إرهاب القدر أو القضاء من إبنها .

وإلى الأمة العربية...

التي تنتظر أن تنجب أماً، تنجب قائداً، يلملم تشرذمها، ويوقف سفك دماء أبنائها، ويعيد المجد لها، فيولد المجد توأماً هما حسين ويزيد .

المحتويات

مُقـــدِّمـــة

بانفصـال جـريء وخطيـر عن القاعدة الأم، لا يهم إن كان له مـا قبلـه، لكـن مـن المهم جداً أن نراقب ونـدرس حاله وما بعده، أعلـن أبـو بكـر البغدادي تنظيمه الجديد «دولة الإسـلام في العراق والشام»، «داعش».

وبتمدّد يشـبه تمدّد النار في الهشـيم ابتلع هذا التنظيم أراض عراقية وسورية تتجاوز في مساحتها مساحات أكثر من دولة عربية. وبفتك وقتل، في الأسـلوب والطريقة والعدد، قلّ ما شـهد التاريخ العنفي نظيراً لهما، بدأ داعش بزرع الرعب في قلوب الأقران قبل المختلفيـن، عبـر جيـش جرّار لم تزل الأسـئلة تتتالـى وتتوالى عن مصـدره وكيفيتـه، لدرجـة ظهـر معها تنظيم داعـش كأقوى جيوش العالـم، والويـل كل الويـل لمـن يقف في طريـق يعمل على فتحها أو ممر يعمل على شقه.

وعندمـا حدثـت هجمـات الحـادي عشـر من أيلول/ سـبتمبر 2001، كان الظـنّ أنّ السـلفية الجهاديـة وصلـت إلى الذروة، فهل هنـاك أخطـر ممّـا حـدث فـي أميركا فـي ذلك اليوم الـذي لم يزل العرب والمسلمون يدفعون فاتورته، لكن ما إنْ أطلّ داعش بأولى عملياتـه حتـى طـوى الفكر البشـري صفحة أبراج أميـركا، ليترقب بسـاعات اليـوم ودقائقـه وثوانيـه خبـراً عاجـلاً جديـداً يفيـد بفعلة أخرى ارتكبها جيش داعش في العراق أو سـوريا، وبحق الشـيعة

أو المسيحيين أو الإيزيديين أو الأكراد أو حتى السنّة.

وسواء لعبت اللعبة الإعلامية لعبتها في داعش ومعه، فظهّرته على أكثر ممّا هو عليه، وسـواء انتهى داعش اليوم أو غداً، إلا أنّ ذكراه وذكريات أعماله وممارساته لا يمكن أن تشكّل مجرد صفحة تطـوى كمـا طـوي أكثر من نصف القاعـدة بعدما طوى الأميركيون صفحة حياة زعيمها أسـامة بن لادن، فمع داعش اتخذت السـلفية الجهاديـة طريقـاً آخـر، منحرفـاً هذا الطريق أم غيـر منحرف، ليس مهمـاً، فالمهـم أنّ تنظيـم داعش أضحى علامـة فارقة، عنفه وضع بنيانـاً آخـر للإرهـاب، والخطير في الأمـر أنه بنيان، يبني نهجاً آخر للإرهاب أكثر هولاً ورعباً، عندما يرث هذا التنظيم تنظيماً آخر أو «خليفة» آخر، إلى أن يرث الله، رب العالمين، الأرض ومن عليها.

فمـع داعـش أنـت أمام عنـف وإرهاب منفلت مـن أي قيود؛ إرهاب يرسـل المشـهد والصورة إلى العدو، عدو داعش، قبل أن يرسل عناصره الإرهابية المسلحة والمدججة بأسلحة فتاكة، فكيف إذا أضفـت إلـى فتكهـا قيمة إرهابية من العيار الثقيل. وهكذا يغدو للإرهاب بعداً مزدوجاً، فهو مرة يعبّر عن نفسه بالصور والمشاهد المحلّقـة بـدون طيـار ومرّة يأتيك الداعشـي طائـراً على جناح من شهادة.

وإذا كانـت خطـورة الإرهـاب تتجسّـد أولاً وبشـكل رئيـس فـي فائـض العنـف والقتل الذي ينزلـه غالباً بمدنيين أبرياء يشـكّل استهدافهم بلاغاً وتعميماً إلى من يهمه الأمر والى كل مقصود من الأمر، وهي الخطورة التي لم يتفوّق عليها حتى تنظيم القاعدة، إلا

أن قواعد اللعبة مع داعش مختلفة جذرياً، فأنت أمام تنظيم حوّل نفسه إلى دولة خلافة وهناك «خليفة» يأمر فيُطاع، وبالتالي هناك استراتيجية متكاملة يسخّر الإرهاب لتنفيذ بنودها، دون مناورة أو تنازل ومهما أوتيت من قوة وبطش.

وما يزيد من هذه الخطورة ويرفع من وتيرتها، هو أن هذه الدولة لم تزل في طور التكوين، وهو ما يعني أنها تعمل من أجل تصليب عودها لتتمكّن وترسّخ، وهي في سبيل ذلك ستصدّر القدر الأكبر من العنف المرتكز على أسس دينية وشرعية فسّرتها الدولة الإسلامية وفق ما يجب إنجازه.

ولقد احتارت العقول، عقول الساسة والمحلّلين والعسكريين وحتى عقول عامة الناس، عن خلفية داعش الاستراتيجية فتناسلت الأسئلة، وكان أوّلها هل نحن أمام تقسيم أدوار بين داعش والقاعدة، أم أنّ داعش هو فعلاً تنظيم خرج إلى غير عودة من عباءة القاعدة، فبنى لنفسه قواعد أخرى؟

هل أنّ تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام هو تنظيم قائم بذاته ومستقل عن أية دولة، أم لا يتجاوز أن يكون صنيعة لجهاز استخبارات لإحدى الدول أو لأكثر من دولة التقت المصلحة على أن تلتقي في هذا التنظيم الإرهابي، ومن بعدها سيلتقون عليه لشطبه من المعادلة بعدما يكون قد أنجز الغرض المطلوب منه إنجازه؟

هل سيستمر داعش طويلاً وبالتالي سيتربّع الإرهاب مرّة جديدة على عرش لعبة العلاقات الدولية أم إنه لمرحلة قصيرة

سنجد من بعدها أن هذا التنظيم قد تبخّر وبدأ يتآكل من داخله؟

ما هي الوظيفة الدقيقة التي أُوكل لهذا التنظيم تحقيقها وتنفيذها؟ وهل سيتوسع إلى خارج العزاق وسوريا أم سيقتصر وجوده ونشاطه بين هاتين الدولتين؟

هل أن خطوة زعيم داعش أبو بكر البغدادي بإعلان «الخلافة» وتنصيب التنظيم له «خليفة» للمسلمين ومبايعة عديد من رجال الدين له كـ«خليفة»، هي خطوة جدية لا رجوع عنها أم أن في الأمر هدفاً آخر أراد التنظيم تحقيقه عبر منطق «الخلافة» ومناطقها؟

هل تمّ إنشاء داعش ليكون في وجه المملكة العربية السعودية حصراً، فكان تمركزه في العراق وسوريا على طريقة قول الشاعر «إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا/ حتى يظنوا أن الهوى حيث تنظر»؟ ثم ما هي حقيقة مخاطره على المملكة، وهل أنّ النظام السعودي أدرك هول المخاطر فبادر إلى اتخاذ إجراءات تليق بخطورة الموقف؟

وفي محصّلة الأسئلة، إلى أي حدّ يمكن الركون إلى فرضية عدم تبعية داعش لأية قوة إقليمية أو دولية، وأن انطلاقته لها أسبابها الموضوعية التي لن يزول داعش أو إخوته أو أبناؤه إلا بزوال الظروف والعوامل التي أنجبتهم؟

وفي كل مرّة يضع الخبراء والباحثون تصوّراً يحدد ماهية تنظيم الدولة الإسلامية ويعين مقاصده أو المقاصد المرجو تنفيذها من خلاله، يعود هؤلاء ليصطدموا في الحائط، وذلك عندما يجدون بأنّ المداميك التي بنوا عليها حساباتهم قد ذهبت أدراج الرياح،

عندما قامت قوات داعش بعملية غير متوقعة هنا أو هناك.

الـكل تائـه في داعش والكل ضائـع مع تنظيم الدولة، والكل محتار مع خطوة إعلان «الخلافة»، لا بل يمكننا التأكيد القريب إلى الجزم، بأن أشـخاصاً عددهم بعدد أصابع اليد الواحدة داخل هذا التنظيـم يدركـون حقيقـة داعش وحقيقة «الخلافـة» وحقيقة ما بعد «الخلافـة» ومـا قبلها، فالفرق بين هؤلاء الأشـخاص وبين العناصر والكـوادر ذات الألـوف المؤلفة التي يتشـكل منهـا التنظيم، هو أن القـادة يشـاركون فـي صناعـة اللعبـة بينما تذهب هـذه الألوف إلى تنفيذ أوامر «الخليفة» دونما أي نقاش أو سـؤال، وهنا يبرز الخطر بأقصـى صـوره وأشـكاله، إذا ما أخذنا بعيـن النظر والاعتبار آليات وأساليب وطرق التنفيذ.

فـي الحديـث عـن داعـش وغيـره مـن التنظيمـات الجهادية، خصوصـاً داعـش، يجـب أن تميّـز بين طبقتين، فهنـاك أولاً القيادة القابضـة والمُمسـكة بتلابيـب التنظيم وهذه عـادة يكون لها برنامج سياسـي سـري لا يطّلع عليه بقية أفراد التنظيم الذين لا يجب أن يعرفوا أصلاً أهداف التنظيم، فما يدور في رأس أبي بكر البغدادي هـو أمـر مختلـف تمامـاً، هو أمر ربما لا يكـون مرتبطاً في الأصل بفكـرة الجهـاد بمعناهـا الدينـي، فقد يكون الجهاد وسـيلة لتجميع القـوات والأمـوال لتحقيـق طموحـات أخـرى أو أهـداف محـض سياسـية أخرى. وهناك ثانياً القوات الإرهابية المسـلحة التي تقاتل وتقتـل وترعـب لتحقيـق الأهداف المرسـومة لها. وفـي رأس هذه القـوات فـإن القتـال هـو أمر إلهي وموجّه ضـد الكفرة أو داعميهم

أو حاضنيهم أو المشكّلين لعناصر قوة لهم، وموجّه ضد الذين قد يشـكلون خطـراً علـى التنظيم، وفي كل الأحـوال فهو القتال القائد إلى الجنة، ولو اجتمع الإنس والجنّ على إقناع هؤلاء بعكس ذلك لما نجح أحد في إقناعهم.

وقـد انعكـس هذا «الإيمـان» المطلقَ بأفعالهم وقوة وشراسـة قتالهم الذي فاق الاحترافية بمفهومها العسكري. ولقد أثبتت معارك حزب الله مع جيش العدو الإسرائيلي أن عناصر هذا الحزب كانوا أقرب إلى القيام بعمليات تدريب منها إلى حرب حقيقية، فالجيش الإسـرائيلي ما عاد مرعباً لأحد، لا بل فاقت إبداعات حماس في قتـال الجيـش الإسـرائيلي إبداعـات حـزب الله، فحمـاس ارتكبت مجازر جماعية بحق هذا العدو وسلمت أيادي أبطالها، وبتنا نرأف بهذا الجيش لشدة ما يقتل منه. لكن قوات داعش تتجاوز الجميع كمـا رأينـا، ولذلك طرح الكثيرون سـؤالاً مفـاده هل أن عدد قتلى حـزب الله فـي القلمون السـوري هو الدافع لمعركة عرسـال، فهل قتـل مـن قـوات حـزب الله في القلمون وسـوريا أكثر ممّا قتل منها في حرب تموز؟

أعتـرف أن معركـة عرسـال التـي سـقط فيها سـلّة من جيشـنا اللبناني على يد داعش كانت العامل الحاسم لاتخاذ القرار بإنجاز هذا الكتاب، لكن الفكرة راودتني واستفزت في داخلي أموراً كثيرة وذلك عندما اعتلى زعيم داعش أبو بكر البغدادي منبره الموصلي الواصـل بين مسـجد وعالم ليعلن «خلافتـه» بنفس الواثق المرعب القـادر فعـلاً علـى تجييش جيوش ونفوس وقد نجح في ذلك، لقد

حرّض هذا الرجل بل حرّك انكساراً نفسياً يعشعش في قلب هنا وقلب هناك فلعب على التوازنات النفسية لدى الكثيرين، وكل ذلك جرى بغضّ النظر عن الموقف الحقيقي منه ومن خطوته فتلك لها كلام آخر.

لم يتوقف اللعب على توازنات نفسية عند هذا الحد، فعزّة الدوري وريث الرئيس العراقي الراحل صدام حسين، جاء بدوره ليبارك خطوة «الخليفة» وقال كلاماً أوحى لنا فيه أن ما كان يحضّره عزّة الدوري لسنوات قد أثمر في «الخليفة»، فهو لم يبايع وإنما بارك وأومى ما أومى. ولقد ظهر «الخليفة» بعد كلام الدوري وكأنه ضابط في الجيش العراقي السابق، جيش الرئيس صدام حسين. فهل أن أبي بكر البغدادي هو بالفعل، ضابط في ذلك الجيش المنحل؟ هذا السؤال كان دافعاً لافتاً أيضاً لاتخاذ القرار بكتابة المؤلف.

كنت مدركاً أشدّ الإدراك منذ البداية أن الخوض في غمار داعش هو أمر صعب وقد يكون جالباً للمخاطر وله حساسياته، غير أنّ الواجب العلمي المنطلق من احترافية بحثية لعب الدور الأبرز في دفعي للبحث عن داعش وفيه.

غير أنّ الذي توقفت عنده ملياً في حقيقة الأمر هو صعوبة إنجاز الكتاب، وهذه الصعوبة غير متصلة بصفرية المراجع المرموقة حول داعش وتنظيم الدولة، وإنما متصلة بالضياع الفكري الذي يمكن أن يصيب أي باحث عندما يجد أن المكتوب حول داعش في غالبيته الساحقة متناقض، لكن ما سرّ أو سبب هذا التناقض؟

فهل أن المسـألة مرتبطة بإخفاء حقائق والترويج لأفكار تريد دول إرسالها خدمة لسياساتها، أم مرتبطة بالربيع العربي الذي مذ اشتعلت احتجاجاتـه، وحتـى ظهور داعش وتمدّده، بدا هذا المشـرق عصيًّا على التنبؤ والاستشـراف. فبالتزامن مع طغيان الظاهرة التلفزيونية، المتوائمة مع نمط الوجبات السريعة في التحضير والتقديم، تتعملق الظواهر وتتغير الخرائط وتنفجر المكبوتات، من دون أن تحظى بما يلزم من دراسةٍ متأنيةٍ وفهمٍ لدواعي النشوء وسواقي التغذية والنمو.

وبسبب ذلك، وخارج فضاء التجاذب الفكري والسياسي، لم يحظَ التنظيم الذي طغى على المشهد السياسي في سورية والعراق بل والإقليم والعالم بكل قاراته، تحت اسم «الدولة الإسلامية في العراق والشـام» بدراسـةٍ بحثيةٍ موسـعةٍ، تسـعى إلى تفسير وتحليل أسباب نشوء وتشكّل هذا التنظيم، الذي غدا الأكثر غموضاً وتطرّفاً وتمدّداً وتقويضاً لجغرافيا الدولة الوطنية الحديثة[1].

لكني في نهاية المطاف والقرار أدركت أن التسلّح بالموضوعية والتجرّد والحياد هي أمور كافية لكتابة أي جديد في تنظيم الدولة الإسـلامية فـي العراق والشـام وفـي تنظيم الدولـة - الخلافة. فما هـو هـذا التنظيـم وكيف نشـأ وبمـاذا يختلف عن الأجيال السـابقة مـن السـلفية الجهاديـة، ومـا هو الجديد الذي أضافـه على مخاطر الإرهاب، وما سرّ تقنية الذبح التي يعتمدها، وما هي الأهداف التي يبتغي تحقيقها، ووفق أية استراتيجية؟

تلـك هـي الأسـئلة الصعبـة والمتكررة التي يبحـث الكل عن إجابـات شـافية لهـا، وإننـا لا يمكـن أن ندّعـي بأننـا توصّلنـا إلـى

حتميات في هذا الصدد، غير أنه يمكن القول أننا بحثنا وجهدنا لتوضيح ماهية هذا التنظيم، وذلك من خلال أدوات البحث العلمي ومناهجه، عارضين جلّ الفرضيات المطروحة على بساط البحث، ومناقشين لكل منها وفق نمط متصل منفصل في آن.

وبذلك، وفي محاولة الإجابة عن كل ما طرحناه من أسئلة وتساؤلات، اعتمدنا التقسيم التالي لهذا الكتاب:

الفصل التمهيدي: «داعش» بين قوسين

الفصل الأول: داعش بين منطق الانحراف ومنطق الاعتراف

الفصل الثاني: داعش بين الجيل الثوري الثالث والجيل الجهادي الثالث

الفصل الثالث: داعش بين الجيل الإرهابي الوسطي والجيل الإرهابي المتوسطي

الفصل الرابع: داعش بين شهب إقامة دولة ولهب إحاطة دول

الفصل الخامس: داعش بين الرقة السورية والخشونة السعودية

الفصل السادس: داعش بين التطرّف الشيعي والتصرف السنّي

الفصل السابع: داعش بين الأهداف السياسية والأبعاد الاستراتيجية

فصل تمهيدي..

«داعش» بين قوسين

«داعش».. أي «دولة الإسلام في العراق والشام»، أي أحرف أربع لكلمات أربع، لكن لأول مرة في عالم اللغة، لم تكن النوايا صافية، فلم تكن الحروف تجميعاً لكلمات، وإنّما للتقذير والتوبيخ والتخويف وزدْ ما شئت من مدلولات وأوصاف تتجاوز السيئ لتصل إلى حدود التهويل والترهيب والتأليب والتنديد، رغم أن الكلمات الأربع التي يختصرها داعش ليست كذلك، لا بل على العكس من ذلك، فهي كلمات تحمل في طياتها ومضامينها أجمل ما يمكن أن تتحدث عنه البشرية من عصر آدم وحتى عصر العدم، بالطبع نقصد البعدين اللغوي والتاريخي وليس البعد السياسي، فهذا البعد هو محور مجادلة الكتاب. لكن تبقى أفعال وارتكابات داعش التي شوّهت ما شوّهت، فأضحى «داعش» ذلك الاسم الظلامي المرعب الذي يتطابق مع نمط الإرهاب الذي يرتكبه ذاك التنظيم كشخصية معنوية اعتبارية والمنتمون إليه كأشخاص طبيعيين حقيقيين.

فإن تلفظ كلمة «دولة»، فيعني أنك تتحدث عن أرقى مفهوم قولب الكيانية المجتمعية فأخرجها من فطرة الغاب ولعنة الضياع

ليدخلها في عالم الحداثة والتطور الفكري والاحترام البشري الآدمي، فمنذ أن قال ربّ الكون بأرضه وسماواته السبع الطباق للملائكة «... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...» وحتى كتابة آخر كلمة في الكتاب، لم يقتدر إطار على التقليل والحدّ من حالة سفك الدماء سوى إطار الدولة، ولربما لذلك كان جواب الملائكة التلقائي لرب العالمين «... قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ».

وأن تلفظ كلمة «الإسلام»، فأنت ببساطة متناهية تتحدث عن قيم ومبادئ وتعاليم إنّما وضعت لِتُخْرِج الناس من الظلمات إلى النور، حملها خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم إلى بني قومه ولم يصدّقه منهم في بداية الأمر سوى قلّة قليلة، لكن مع تواتر الأيام بدأ الإسلام ينتشر تارة بالدعوة والفتح الفكري وتارات بالسيف والفتح العسكري، وتوفي النبي لتبدأ عهود «الخلافة» ويبدأ معها خلافات «الخلافة» فانعطف التاريخ البشري مرة أخرى صوب الخلاف على السلطة بمنطلقات دينية لم نزل نشهد فصولها، فالإجماع حول الأحقيّة ما تكرّس في البداية ليتكرّس اليوم مع ما سمّي «الخليفة أبي بكر البغدادي»، إذن عُدْ بالمسألة إلى الوراء مئات من السنين، فهكذا تكون موضوعياً في الحكم في النزاع بين الدم والسيف.

وأن تلفظ كلمة «العراق»، فأنت هنا أمام وقفة مع التاريخ الذي كتب فصولاً من الخلافة العبّاسية، جاءت «الخلافة» البغدادية لتضع نفسها في نفس السليلة ولتضع في السلّة افتراء على التاريخ

كتبه منتصرون نصّبوا أنفسهم خلفاء لخلفاء الدولة العباسية، فالحق لأصحابه فقط وفق منطق «الخليفة» أبي بكر السامرائي، وتلك هي قمة السادية والغرور، وفق أحد المعقّبين.

وأن تتحدث عن «الشام»، فأنت هنا أمام تاريخ آخر من المستجدات الدينية التي لا تبدأ بالخلافة الأموية ولا يمكن أن تنتهي بالإمارة الجولانية التي ولاّها «الخليفة» أبو بكر البغدادي، فكتب التاريخ مرّة أخرى سطراً جديداً من فصول الخلاف في البيعة، فحتى شعرة معاوية الشامي قطعها البغدادي مع الجولاني، لتكون لغة السيف والدم هي اللغة المتبقية بين «الخليفة» والأمير المتمرد، فصورة أمير المؤمنين المبايع حجبت الشمس عن سيّد الجولاني أيمن الظواهري.

لكن ورغم ذلك، فمنذ اليوم وحتى إشعار زمني معلّق على مستجد تاريخي آخر، عليك أن تعلم بأنك داعشي إن أخطأت معي، وبأنك داعشي إن فعلت ناقصة، وبأنك مجرم وإرهابي لو فعلت ما يغضب كل من ليس بداعشي.

إنه التقذير الثقافي لنا نحن العرب، إنّه الانحدار المجتمعي الذي نعيشه وندرك أنّنا نعيشه، نقبل الإهانات على بعضنا ونرمي بها أنفسنا قبل غيرنا، ونتقبّل ما يصفنا به الآخر، وكأنّما الشر محجوز لنا فقط دون غيرنا من الأمم الأخرى، لا بل إنها الانهزامية التي ترقد في أنفسنا رقدة أهل الكهف، ولكأنّما الكهف أصبح جزءاً لا يتجزّأ من ثقافتنا وتراثنا، به نرقد ومنه نقاتل وفيه نختبئ واليه نعود، فلقد انتقلنا من عصر حطّين واليرموك والقادسية ومرج دابق

إلى عصر تورا بورا وقندهار ووزيرستان وعصر الأنفاق والدهاليز والسراديب والكهوف، وعندما تحدث مرة ونرفع راية لنقاتل خارج الكهف، معترفين أنّنا إرهابيين، نتغنى بالكهف ونظنه جزءاً من ثقافة غار ثور أو غار حراء وكم الفرق كبير بينهما.

ونظن بأنّ مصطلح «داعش» محصور بتلك الجماعة المسلمة شكلاً على الأقل، لكن الحقيقة تقول بأنّ المصطلح معمّم، وسنأكل سمّه في لحظة تاريخية مؤاتية، فبعد عدة سنوات، سيقول لنا الآخر، أيًّا يكن هذا الآخر، سيقول لنا: اسكت يا عربي يا داعشي، اسكت يا مسلم يا داعشي، عندها نلطم رؤوسنا بأيدينا عمّا ملكت أيدينا ذات يوم ظننّا فيه أن الداعشية ليست جزءاً منّا ولا تمثلنا وكنّا أول من طالب بالقضاء عليها.

كل ذلك سيحصل لنا نحن العرب المسلمون، لأننا لم نستطع أن نثبت أو لم نتجرّأ أن نثبت أو حتى نقول، بأنّ داعش هي الأقلية بيننا، وإنها نتيجة شبه حتمية لداعشية مقابلة امتلكت عناصر القوة، وسادت وسيطرت، فالبعض أسماها حالش، لكنها ليست بحالش وليست بداعش، إنها فقط نموذج آخر لعنجهية القوة التي عندما نمتلكها نفشل في توظيفها لمصلحة المجموع، وذلك كله لأن العصبية والمذهبية والطائفية تجعلنا حتى عندما نقاتل العدو المشترك إسرائيل، نحاول أن نستثمر هزيمتنا له في بيتنا الداخلي، فدوماً هناك فريق انتصر وفريق تآمر مع العدو، إنه نفس الخطاب الذي قاله السيّد نصر الله بعد نشوة تموز 2006، ولم يزل حتى اليوم يعيده كلما دعت الحاجة، ناسياً أو متناسياً أن داعش، لا

يمكنـه مواجهتـه علـى الإطـلاق إن لـم يحمل السـنّي البندقية قبله، فلا أميركا قادرة على هزيمة داعش ولا إيران قادرة ولا الشيعة ولا المسـيحيين ولا حتـى اليهود، وحدهم السـنّة هـم القادرون، لأنهم فـي لحظـة القـدرة يكونون في صدد الدفاع عـن انتمائهم وهويتهم وحقيقـة مذهبهـم ومعتقدهـم، وهي أنواع من الدفاع تسـبق الدفاع عن النفس في سلّم التصنيف.

وإذا كان البعض يقول بأن مصطلح «إرهابي» لا يلائم وضع «داعش»، على اعتبار أن الإرهابي يحاول بثّ الخوف في خصومه الذيـن يطلـب منهم تقديم تنـازلات معيّنة[2]. فالخوف كل الخوف، أن يحصـل التعميـم، بحيـث لـم تعد تليق بنا كلمـة «إرهابي»، ولن يعود أحد في هذا العالم يتهمنا بارتكاب الإرهاب، كونه صفة تطلق على الأمم والشـعوب غير العربية عندما تقاتل وترتكب الإرهاب، فالإرهـاب كلمـة سـامية تحمل مضاميـن وأبعاداً راقيـة، فالإرهابي يمارس الإرهاب من أجل قضية سياسية ولتحقيق أهداف ومرادات راقيـة ونبيلـة، لكـن نحـن العـرب لا يمكـن بعـد اليـوم أن نكـون إرهابيين، فزمن الإرهابيين الكبار عندنا قد ولّى إلى غير رجعة.

أمّـا الجيـل المعاصر والذي سـيأتي بعـده وما بعد بعده، جيل الربيـع العربـي والثورات العربيـة وتداعياتها وإفرازاتها، فهو الجيل الذي لا يرقى إلى أن يكون جيلاً إرهابياً، إنّه جيل داعشي بفخامة، فالداعشـية هنا تعني الإرهاب الذي يمارسـه العربي دون غيره من أمم الأرض قاطبة.

إذن علـى جامعـة الـدول العربية وعلى الدول العربية السـامية

في الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب أن يتداعوا لجمعية عمومية عاجلـة، ويقـرّوا التعديل القاضي بإزالة كلمتي الإرهاب والإرهابي من نصوصها ليستبدلوهما بكلمتي الداعشـية والداعشـي. وبذلك فلتعلم حركة المقاومة الإسلامية حماس وحركة الجهاد الإسلامي وليعلم حزب الله اللبناني، ليعلموا هؤلاء أن الغرب قد أسقط عنهم صفة الإرهاب وألحق بهم وصمة الداعشية أو ألحقهم بالداعشية، لا فرق.. كم هي قاسية تلك الكلمة.

ليتـك يـا أبـا بكـر تخلّيـت عن الشـام واعتمدت سـوريا بدلاً عنهـا فكانـت دولتك تسـمّى «دولة الإسـلام في العراق وسـوريا»، فهكـذا كنـت قلبـت كل المعايير، فحلّت «داعـس» محل «داعش». تـرى! هـل خانـك الـذكاء لحظتهـا، أم لم تكن لتتوقـع ثقل داعش علـى الأذن، ولذلـك استيقظت فيما بعـد وفرضت عقوبة على من يصفك بالداعشي.

كان عليـك أن تـدرك، أننـا نحـن العـرب، ولـن أقـول نحـن المسـلمين، نحن العرب تنازلنا عن كل شـيء ولا أدري إن كنّا لم نـزل متمسّـكين بكرامتنـا، لكنّنـا تنازلنا عن أجمـل وأروع ما لدينا، فالوطن العربي نسيناه وخضنا مصطلح الشرق الأوسط، وفلسطين نسيناها وخضنا مصطلح الكيان الصهيوني، ظانّين بأنّ إدخال كلمة «كيان» تعكس تمسّكنا بفلسطين، فقلّ ما نذكر فلسطين المحتلة التي انشـطرت إلـى الضفـة والقطاع فضاعت بينهمـا والى فتح وحماس والى محمود عباس وخالد مشعل، ألم تنتبه لفخّ المصطلحات من قبـل، أم كنـت مـع الذين خاضوا غمارهـا فجئت اليوم لتلبس رداء

«الخلافـة» تكفيـراً عن ذنب، فلاقـوك في أول منعطف وأخذوا من تكفيرك للذنب مرة أخرى حجة عليك، فوصمة التكفيري لبستك قبـل أن تلبـس رداء «الخلافـة»، فلا بأس أن تكون «خليفة»، لكنّك «الخليفة التكفيري».

نحـن العـرب، بالطبـع نعيـش فـي كنـف الصراعـات العرقية والمذهبيـة وقـد أجّجتها الثـورات العربية وعوّمتها في الأنفس قبل أي مكان آخر، ونظن بأن انتماءنا للمذهب السنّي أو الشـيعي هو خلاصنـا وبـه تتحـدّد هويتنـا الواجب إبرازها، لا لشـيء آخر وإنّما لشـيء وحيـد وهـو العفـو من القتل، فأنت كشـيعي تنعـم بثروة أن نصف مسلمي لبنان هم من أهلك وجلدتك فأنت بمأمن وسيكونون إلى جانبك ضد النصف السنّي الآخر، وأنت كسنّي تنعم بالمثل، وأنتما الاثنين، السنّي والشيعي، الويل كل الويل أن تسألا وتتساءلا، كيف يمكن أن تخسرا النصف الذي يحميكما، أو كيف يمكن أن تتخيلا يوماً يُهجّر فيه المسـيحي من أرضه ووطنه، لكي يُعفى من الإبـادة فينبـت لـه عمر جديـد، لكن أنتما لا تُهجّـران، ليس إكراماً لكما في الحياة وإنّما إكراماً في الممات، أوَليس إكرام الميت دفنه؟

هناك من يقول جازماً بأن الداعشـية الشـيعية هي من أنجبت الداعشـية السـنّية، وهناك من يقول حاسـماً بأنّ الداعشـية السـنّية هي من أنجبت الداعشـية الشـيعية، وهناك من يقول مستشـرفاً بأنّ الداعشـية الإسـلامية سـوف تنجب داعشية مسـيحية، لكن أحداً لم يقل خجلاً بأنّ داعش الصهيوني هو المجرم الذي اغتصب عرضنا نحن العرب، مسلمين ومسيحيين، فأنجب في كل نفر منّا داعشياً،

وليته أنجب فينا عقدة ذنب تدعى فلسطين، ترى ألهذا لم تزل تحيا فينا عقدة العرض ونسينا عقدة الأرض، رغم أن الشهيد هو من مات دون عرضه أو أرضه أيضاً، وترى ألهذا تنازلنا في فضاءاتنا وفضائياتنا عن مصطلح «شهيد» عندما يقتل الصهيوني امراة فلسطينية أو رجلاً فلسطينياً، فنسمّيه ضحية أو قتيلاً، ونرفع راية الشهادة عندما يُقْتَل مسلم معتدل على يد مسلم متشدد، وهنا لا تهمّ كثيراً القضية التي من أجلها حدث فعل القتل، فالمهم هو أنه قتل ناتج عن اقتتال.

وإنّي إذ عرضت ما عرضت، فذلك لأقول بوضوح وصراحة بأن استخدامي لمصطلح «داعش» في كتابي هذا، ليس من باب التقذير أو الاستهزاء أو التقزيز أو التنديد، كما هو واقع وحاصل، فقيمة البحث العلمي ترفض أن يكون الباحث أسيراً للغة لا دخل للعلم بها، فأنا إذ أستخدم في كتابي مصطلح داعش، فذلك فقط من أجل التدليل على «دولة الإسلام في العراق والشام»، اختصاراً.

الفصل الأول

داعش بين منطق الانحراف ومنطق الاعتراف

لم يكن سعادة الأستاذ خالد الضاهر عضو البرلمان اللبناني عن أشدّ مناطق لبنان فقراً والمنحدر من أصول إخوانية لا أصولية ليمزح عندما قال أمام العامة والخاصة وفي الإعلام وبجدية وحرارة تضاهي حتى حرارة جديته في مهاجمة حزب الله، بأنّه عندما كانت والدته حاملاً به، جاء النبي إلى والده في المنام ليبشره بأنّ لابنه شأناً في المستقبل وسينطلق كالصاروخ، فما بالك برجل هو رئيس «الدولة الإسلامية» الحديثة العهد في العراق والشام، المنطلقة من منصّة السلفية الجهادية، يُبايع كـ«خليفة» أيضاً حديثاً، مع فارق أنه أكثر جدية من الشيخ الضاهر بدليل أنّه لم يعيد «خلافته» إلى منامات وأحلام وإنّما إلى واقع عبّر عنه بخطبة حبست أنفاس العالم، كل العالم لدقائق ليست بقليلة.

بالطبع ليس لهذا السبب، يعتبر فقه «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، «داعش»، أنّ الصواريخ التي يطلقها «إخوان» فلسطين على الصهاينة هي بمثابة صواريخ كارتونية، مصنوعة من تحالف ضمني بين حماس وإسرائيل يدفع ثمنها الشعب الفلسطيني،

وإنّما لأنّ أيّ فصيل أو تنظيم يدخل في عداد الإسلام السياسي خاصة، هو تنظيم خارج عن الطاعة والولاء طالما أنّه لم يعلن البيعة العلنية للـ«خليفة أبو بكر البغدادي».

وبالطبع، فإنّ المسألة ليست تأثّراً ولا امتداداً لعقيدة «الرئيس الأميركي الأسبق جورج دبليو بوش، عندما خيّر العالم، كل العالم، قبل (13) عاماً، وهو رقم التشاؤم والشرّ، بين خيارين لا ثالث لهما، فإمّا أن تكونوا معنا، أي مع المسيحيين المتصهينين وإمّا مع الإرهاب، وذلك بعدما قرّر المطبخ الاستراتيجي الأميركي في عهد هذا الرئيس الأميركي تثبيت السيطرة المطلقة على العالم عبر يافطة «مكافحة الإرهاب»، وإنّما لأمر آخر، لم يصل اليه حتى تنظيم القاعدة.

غير أنّ رقم التشاؤم هذا قد لا يكون كذلك أو لن يأخذ هذه الصفة في العام 2014، فالمسلمون لم يعيشوا العدل والرحمة والمساواة إلاّ في أزمنة «الخلافة»، لكن في أزمنة «الخلافة أيضاً»، وبالأخص «الخلافة» الأولى، كان المسلمون على موعد مع الخلاف الأول، فلمن كانت «الخلافة» ومن حصل عليها؟ فكانت النتيجة أن أبا بكر الصديق هو الخليفة الأول، واليوم فإن «الخليفة» الأخير هو أبو بكر البغدادي.

ترى!! ألهذا السبب اتخذ أبو بكر البغدادي هذه التسمية، هل ليعيدنا إلى قرون الانقسام الأول، وليقول بأنّ يوم مبايعته «للخلافة» هو اليوم المجيد بـ«ال» التعريف، نافياً ولاغياً نفس «ال» التعريف التي يعتنقها الشيعة في مصطلحاتهم الدينية المقدسة، وليلعن

بالتالـي مـع مقبـل الأيـام أنّ يـوم السـيّد نصـر الله الشـهير لـم يكن مجيـداً، فـ«الأيـام بيننـا» هي الجملة التـي أراد البغدادي أن يقولها لأمين عام حزب الله السيّد حسن نصر الله.

أن يقول أبو بكر البغدادي أنا «خليفة» المسـلمين، فهذا يعني أول ما يعني أنه يتوجه إلى «أبي هادي نصر الله» بالقول باطناً «لي الأمـر وعليـك الطاعة»، فانظر إلى حال فروعي من النصرة وغيرها بعدما رفضت الطاعة، واتعظ.

وفـي الحقيقـة، فإنّ السـيّد حسـن نصـر الله، بذكائـه المعهود قـد استشـرف تطلّعـات زعيـم «الدولـة الإسـلامية»، وتجلّـى ذلك الاستشراف عندما استعار السيّد مفردات جورج دبليو بوش فقالها صراحـة لا باطنـاً إنّـه لـن يتكتفـنّ ويتـرك التكفيرييـن ليصلـوا إلى سـواحلنا وينالـوا منّـا، وتلـك كانت أحـد تبريرات السـيّد نصر الله فـي دخولـه الحربي للمعترك السـوري، وهـي التبريرات التي ركب جوادهـا زعيـم المقاومـة القديمة عندما غزا داعـش غزوته العراقية التي أوصلت زعيمه إلى كرسي «الخلافة».

لكـن فلنتـرك كل تلك المعادلات جانباً؛ إنّها المعادلات التي ستتشـكل منهـا قواعـد اللعبـة الجديـدة في العالم الإسـلامي على امتـداده وليـس فقـط فـي منطقة الشـرق الأوسـط. فلنتركهـا مؤقتاً لنعـود إليهـا بالتفصيل المعمّـق في بحثنا هذا، لنعلن صراحة وعلناً أنّنا قرّرنا الكتابة عن «داعش»، فبقدر ما لهذا التنظيـم - الدولة من سرّية وخفاء ويحمل في طياته الألغاز والإبهامات، بقدر ما ستكون كتابتنا عنه وفيه متسمة بالوضوح والبيان والجرأة، فالمعادلة هنا هي

التالي: «إن لم تكن كباحث مزّوداً بأحزمة من الجرأة والموضوعية عندما تبحث عن داعش وفيه، فإن رسالتك كباحث علمي مكلّف في الوصول إلى بدء بيّنات حقائق، قد تتسلّل إليها ومن كل المعابر والحدود الشك واللااحترام».

هـذا يعنـي أنّـه علينا أن نفتّش عن مكامن الأهمية التي تدفعنا للبحـث فـي هـذا المقـام، فهل يدخل في عـداد القضايا المهمة أن تسـخّر وقتـاً وجهـداً ومـالاً فـي البحـث عـن مُـرادات وطموحات تنظيـم داعـش؟ هـل من جديد بإمكانـك أن تقدمه للقارئ العالمي في زمن العولمة السياسـية والدينية والمذهبية بل والجهادية أيضاً، حيث المعلومة تنتقل بكبسة زر واحدة إلى كل منزل في أي بقعة مـن بقـاع أرض «الخلافـة»؟ هل يتصف ملـف داعش بالجدّية التي تحرّك فيك كباحث حسّ التطرّق إلى أكثر ملفات السياسة والدين حساسية ودقة بل وخطورة؟

بالطبـع، تشـكّل الأجوبـة عـن هذيـن السـؤالين أرضيـة أخذ الشـرعية كباحث همّه الوحيد المنطلق من رسـالته المجيدة البحث عن الحقيقة، والحقيقة العلمية فقط. وعندها، إذا قرّر «الخليفة» أبو بكـر البغـدادي إقامـة الحدّ عليك، فلا بأس، فلتكن شـهيداً جديداً للحقيقة، حقيقة العلم، تلك الحقيقة التي لا أدري إن كانت المعاني والمفاهيم والوطنيات تمنحها وصف الشهادة.

غيـر أننـي أعتقـد، أنّ «الخليفة» الذي اتسـمت جلّ سـلوكياته بالدهـاء الملـوّن، تـارة بالسياسـة وتـارة أخرى بالـدم، وإن كان قد اتخـذ قـراره الاسـتراتيجي مـن وجهة نظـره، في القضـاء على كل

منافسيه ومناوئيه من أفراد وتنظيمات، بدءاً بابنته النصرة بناصرها ومناصريها عبر تقنية الإرهاب، غير أنّ التقنية هذه نفسها لا يمكن أن تفلح مع رجال العلم لأسباب كثيرة يدركها «الخليفة»، سيّما أنّه أستاذ جامعي، أي رجل علم، وبالتالي فهو يدرك أشدّ الإدراك متعة البحث الذي قلّ ما تتداخل فيها أنماط السياسة المنطلقة من ألعاب الاستخبارات، فالباحث ليس موظفاً وإنما سيّد.

وقبل أن ننطلق في الإجابة عن هذين السؤالين اللذين طرحناهما للتو عن أهمية البحث في داعش وعنه، دعونا نتفق على أمر وهو أنّ أي موقف مسبق من هذا التنظيم وزعيمه، ليس واجباً علينا أخذه، على الأقل من الوجهة العلمية البحثية للموضوع، سيّما إذا ما صرخنا مع الصارخين أنّ هذا التنظيم هو تنظيم إرهابي وأنّ زعيمه هو أرهب رجل على وجه المعمورة، وبأنّ الدول بأكملها يجب أن تتكتل ضده لتنهيه وتنال منه خدمة للإنسانية، هو صراخ ينهي البحث ويعدم جدواه، فالموقف المسبق من الفكرة البحثية تنال هي من الموضوعية، وتقتل الجهد الواجب بذله لتبيان الحقائق التي هي وحدها من يسعى الكل، من دول وأفراد وتنظيمات وأحزاب إلى قتلها، والرئيس الراحل رفيق الحريري لم يزل ماثلاً أمامنا، ليس لأنّ داعش هو من تداعيات مقتله بطريقة أو بأخرى، وإنّما لأنّ الحقيقة هي العدو الأول للسياسة بكل أذرعها.

وأيضاً قبل الإجابة، تقودنا الصراحة العلمية إلى القول بأنّ من يعتبر داعش وزعيمه إرهاباً صافياً، فعليه أن يقدم لنا النصّ القانوني الدولي الذي يعتبره كذلك، فهو نفس النصّ الذي يجعل

إسرائيل دولة إرهابية ونفس النصّ الذي يجعل الولايات المتحدة دولة أكثر من إرهابية، بل ويجعل إيران دولة تحيك الإرهاب كما تحيك سجاداتنا التي تسكن منازل قادة 14 آذار وثمانيته.

وإني إذ أقول هذا الكلام متحمّلاً مسؤوليته، فذلك نابع من حقيقة أخرى تقول بأنّ الدول، كل دول العالم، لم تتفق حتى لحظة كتابة هذه السطور على تعريف موحد للإرهاب، وغياب التعريف هذا هو من ساهم في إنتاج وتطوّر كل الحركات المُدانة على الأقل منذ ولادة «تنظيم الأمم المتحدة». إذن فلنسجل بأنّ الأمم المتحدة هي تنظيم أكثر منها منظمة، ولنا في تبيان ذلك بقية كلام.

والآن نعود إلى سؤال الشرعية الأول، وهو السؤال المرتبط بالأهمية؛ أهمية البحث في الدولة الإسلامية، تلك الدولة التي ولدت بلمح البصر، وسيطرت على جغرافيا اتخذت منها منطلقاً لإقامة «خلافة». هم سمّوها «خلافة» وأنا أسميها دولة، لأنّ عناصر الدولة مجتمعة فيها، فالأرض، العنصر الأول من عناصر الدولة، عابرة للمعابر والحدود والشعب يمتد من سُنّة العراق إلى سُنّة سوريا والتوسّع جار بكل الجهات والأرجاء، أمّا السلطة، العنصر الثالث، فأقدّم لكم «الخليفة أبو بكر البغدادي»، السلطة الأوضح، وهنا أيضاً دعونا نتفق على عدم أهمية الفتاوى المتناقضة أصلاً حول مدى مشروعية خلافة «الخليفة» الجديد، فحتى الرافضين له «ولخلافته»، اختلفوا في تبرير عدم مشروعيته.

وإذا كان صحيحاً بأنّ أحداً من الدول لم يعترف بـ«الدولة الإسلامية»، فالصحيح أيضاً هو أنّ التناقض سيّد الموقف في

هـذا المقـام، ذلـك أنّ مثل هذا القول إنّما يعني أن داعش والدولة الإسـلامية وبالتالـي «الخلافـة»، هـو عمل عصامـي ناتج عن جهد أبي بكر البغدادي ورفاقه وعناصره الإرهابية، وهنا تكمن الخطورة الأكبـر، وهـي الخطـورة التي تعطي دعماً ثانيـاً لأهمية التطرق إلى هذا البحث. إذن نحن أمام سؤال أكثر من محرج موجه لكل الدول فحواه، هل أنّ داعش هو ابن شرعي لأجهزة استخبارات دولية أم هو لقيط، أم هو تنظيم يشكل تحدياً جدياً لكل القوى الدولية؟

وبالنسـبة إلى سـؤال المشـروعية الثاني وهو المرتبط بالجديد الـذي يمكـن تقديمه في التنقيب عن داعش، فللأسـف أريد القول بأنّ ما كتب حول داعش لا يمكن أن يرتقي إلى درجة الدراسات المفيدة، فما كتب ليس إلاّ أفكاراً تعكس الأجندة السياسية لممّول الفكـر والفكـرة، وإنّ كتابـاً مرموقيـن زرعـوا حقـولاً مـن القصائد والأشعار لصوغ علاقة حميمة بين داعش والنظام السوري، جاءت عمليـة حقـل شـاعر الحمصـي النفطـي ومـن بعدهـا مطـار الطبقة العسـكري فـي الرقـة لتحصـد ذلك الـزرع، ففي هـذه العملية قتل داعش من جنود الجيش السوري المئات.

الفصل الثاني

داعش بين الجيل الثوري الثالث والجيل الجهادي الثالث

هل ما حصل في بلاد العرب والإسلام هو ثورة أم مؤامرة؟ ذلك هو السؤال الذي انقسم حول الإجابة عليه حتى أبناء الوطن الكبير وأقصد الوطن العربي الكبير. لا بل ذلك هو السؤال الذي شكّلت بعض الإجابات عنه مسماراً جديداً في نعش القضية العربية وأقصد قضية حتمية التغيير التي كان لا بدّ للشعوب العربية أن تعيشها وفق الحاجة الحتمية أيضاً، ولم تزل.

نقول «ولم تزل»، لأنّه حتى المغالين والمبالغين بما اعتبروه مدّاً ثورياً سوف لن يبقي ولن يذر، يتحدثون اليوم، أقلّه بين أنفسهم، عن خلاص ينجي العرب أولاً من تداعيات المدّ الثوري الذي حصل، ويضع القواعد الجديدة لحالة ثورية صحيحة تحتاجها بالفعل والقول الشعوب العربية.

هل ما حصل في بلاد العرب والإسلام هو ثورة أم مؤامرة؟ ذلك هو السؤال الذي تختلف الإجابة حوله بين زمنين، زمن ما قبل داعش وزمن ما بعد داعش، وإن كنا متسلّحين بالدقة العلمية نقول بأنه السؤال الذي تقع الإجابة عنه بين ثلاث أزمنة، زمن ما

قبل داعش وزمن ما بعد داعش وزمن داعش.

وعندما نقول زمن داعش، فإنّنا نقول أيضاً الزمن الذي توّج البعد الاستراتيجي للثورات العربية، فداعش وفق هذا المنطق غير المُجادل فيه هو النتيجة الأخطر والأوضح والأكبر التي تمخّضت عن ثورات العرب.

داعش هو النتيجة التي لا يمكن أن يتسلل إليها التأويل أو النقاش، وإن كل النتائج الأخرى التي يتحدث عنها خصوصاً أولئك الذين بشّروا بالربيع العربي أضحت بداعش ومعه قابلة للنقاش، وأقلّه مطروحة للنقاش.

وأكثر من ذلك، فإنّ ما أنجزه داعش في الفكر التنظيري العربي، وأخطر ما أنتجه يتمثّل في عملية التحويل الذهني والفكري الواجب صبّه للبحث عن كيفية إعادة تبييض لا بياض المدّ الثوري بعدما سوّدته رمادية الظاهرة التي ستتحول إلى دولة.. «فخلافة».

ولعلّ أسطع دليل على ذلك هو الخلوة التي اتخذها الداعية يوسف القرضاوي ليتفرغ من أجل التنقيب عن الأسانيد الدينية والشرعية التي تجعل أبا بكر البغدادي متحاملاً على الإسلام ومزيّفاً له ومصادراً لله.

نعم، هي محاولة مصادرة الشرائع الإلهية التي تناوب عليها كل أطياف الإسلام السياسي وتلاوينه، فقبل داعش الذي مثّل الربيع الثوري للإسلام السلفي الجهادي، كان هناك الإخوان المسلمون الذين رموا بأنفسهم على ظهر الحراكات الشعبية العربية البريئة فتلطّخ الحراك بالدم ونُحرت الثورة، فهؤلاء الإخوان لم يختلفوا

في عين العربي، مسلماً كان أم غير مسلم، عن داعش بشيء، عندما أوّلوا وحوّروا الدين لتحقيق أحلامهم، فحتى القرآن الكريم لم يفلت من التحكّمية والاستبدادية في التفسير. لتكون الآية القرآنية رأس جسر للعبور إلى السلطة بدل أن تكون السلطة رأس حرس لتطبيق الشرع الحق، وإحقاق الحق عبر الحكم الرشيد القائم على حكم الله وأحكامه. وهكذا سقط الإخوان قبل أن يعتلوا السلطة ويستلذوا بمتعتها.

ومن يستطيع أن يجادل وينقض الظاهر القائل بأنّ سقوط الإخوان في الربيع الثوري مهّد الطريق لبروز الجهادية السلفية بقوة، والأمر ليس مقتصراً على داعش الظاهرة، فحيثما ولّيت وجهك شطر الربيع العربي ستجد أنّ فصائل السلفية الجهادية هي الفصيل الأقوى سيّما بعد أن وضع نصف الربيع العربي أوزاره.

لنناقش الحالة الليبية، فسنجد في السطر الأول من كتاب الحالة الثورية فيها أن تنظيم أنصار الشريعة الذي يحمل الفكر السلفي الجهادي هو التنظيم الأفعل، لا بل هو الأفعل في المدينة الولّادة للحراك، بنغازي، حيث الصبغة الدينية بادية فيها. لا بل لنبحث معاً في كل ليبيا، فأين أصبح المشروع السياسي للإخوان المسلمين، وأين أصبحت الخطابات والتنظيرات السياسية للدكتور علي الصلابي المؤتمن على مشروع الإخوان في ليبيا؟ وهل ما زال الشق العسكري للإخوان في ليبيا هو الأقوى والأفعل وبيده المبادرة؟

لنناقش الحالة المصرية، فسنجد كيف تبخّر الإخوان المسلمون من المشهد المصري عقب السقوط الأكثر من منطقي لهم، وبنفس

السلاح الذي حملوه للوصول إلى السلطة، ففي بلاد الكنانة عادت خلايا الإسلام السلفي الجهادي للتنشيط والنشاط على حساب الإخوان بلا شك.

ولنناقش الحالة التونسية، التي في عزّ الاستبدادية التي عرفتها تونس في زمن الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي، ما كان جبل الشعانبي وارداً يوماً على لسان الإعلام، لكنه اليوم علامة فارقة في الجغرافيا التونسية، وهو كذلك لأنّ السلفية الجهادية استوطنت فيه، عندما قبل الإخوان بنصف سلطة يتشاركونها مع العلمانيين، فكم من شعانبي سنشاهد إذا ما لفظ الشعب التونسي النهضة الإخوانية، ليصعد الشعانبيون بثقة أكبر وليقولوا: هذا دليل على أنّنا الخيار الصحيح.

وسوريا، هل تحتاج لترف نقاش؟ فكم يشكّل حجم قوة التنظيمات العسكرية التي تقاتل النظام قياساً بحجم تنظيمات السلفيين الجهاديين، الموزعين بين جبهة النصرة ومن معها ووالاها وولاّها، وتنظيم داعش ومن معه ووالاه وولاّه والذي بمعركتين فقط مع الجيش السوري قتل المئات منه، فهناك أيضاً جاء بروز الجهاديين بعدما فقد الإخوان فجأة البيئة، بيئة المواءمة بين نضال في خدمة دولة ونضال في خدمة سلطة.

لكن العراق هو السلطة وهو الذروة وهو الدليل القاتل إن شئت، فلنستعجل النقاش ونضع المعادلة في بلاد الرافدين؛ تلك المعادلة القائلة بأن داعش لم يولد هناك إلاّ بسبب موت - وتلطيفاً - فشل الإخوان الذين منحوا الشرعية السُنّية للاحتلالات الثلاث،

وهي الأميركية والإيرانية والمالكية.

في العراق ومنذ البداية كان الإخوان مغالين في تعبيرهم وتعابيرهم لحبّ السلطة ونكهتها ولذتها، فظنوا أو هم أُوهموا ظنًّا أنهم يمثلون التيار الأكبر من السنّة ويستطيعون فرض توازن حقيقي مع التكتل الشيعي الإيراني وليس التكتل الشيعي العربي. وطيلة عشر سنوات ونيف من الاستعباد والقهر والجور والظلم والكيدية والانتقام وزدْ ما أردت، خرج العراقيون السنّة بحقيقة بدت في لحظتها ساطعة ومفادها أن الإخوان المسلمين العراقيين منحوا المالكي صك غطاء ليمارس بفلوجة الأنبار وديالى ونينوى وصلاح الدين ما مارس، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أنّ داعش هو الممثّل الشرعي الأكبر لآلام وأحقاد وأوجاع أهل السنّة في العراق.

وكانت الحقيقة الأخطر أنّ داعش العراقي يختلف كثيراً عن دولة داعش الكبرى، التي أضحت طموحاتها لا تقبل الجغرافيا المحدّدة من النيل إلى الفرات، فمع «الخلافة» علينا فتح كل العالم ولو بنيل وفرات من الدماء، وهذا منطق من أسهل ما يكون التقاط أسانيده الدينية في زمن محاولة مصادرة الشرائع الإلهية، الذي لا يمكن تحميل تنظيم داعش مسؤوليته، طالما أنّ هناك بحوراً شعبية كفرت بالكثير من المسلمات.

لكن من هو داعش العراقي؟

الخوف كل الخوف، أن يكون النظام السياسي الذي عقده الشيعي الإيراني في العراق في عين السنّة العرب والشيعة العرب

نظامـاً احتلاليـاً مشـابهاً للنظام الاحتلالي الشـيوعي السـوفياتي في أفغانسـتان فـي الثمانينيـات، يـوم نبتت نواة القاعـدة في ذلك البلد الإسلامي غير العربي.

والخوف كل الخوف أن يكون أبو بكر البغدادي هو «الخليفة» الحقيقـي لأبـي السـلفية الجهادية الشـيخ عبد الله عـزام، فأن يكون أبـو بكـر البغـدادي هـو خليفـة لعبـد الله عـزام فهـو أخطـر من أن يكـون «خليفـة» للمسـلمين، لسـبب واحـد فقط وهـو أن يكون أبو بكـر البغـدادي خليفـة لعبد الله عزام، فهـذا يعني أنّنا بانتظار حتمي لـ«خليفة» يرث أبو بكر البغدادي ويرث معه المسـببات والدوافع والحيثيـات التـي أتـت بأبـي بكـر ليـس كخليفة، وإنّمـا كزعيم في طـور جديـد للفكر السـلفي الجهـادي بمنطقه الجديد أيضاً، سـيّما أن حيثيـات القـرن الحادي والعشـرين أكثـر تطرّفاً في منطقيتها من حيثيـات ثمانينيـات وتسـعينيات القرن العشـرين وتتمّتهـا في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

وبالطبـع، فإننـا عندمـا نبـدي تخوّفنـا مـن خليفـة لأبـي بكـر البغدادي، فذلك غير منطلق من نسقية خلافة أسامة بن لادن ومن ثم أيمن الظاهري لعبد الله عزّام، فهناك فرق لا يمكن إدراك مداه بين الخلافة المنبثقة من مبدأ خير خلف لخير سـلف أي الخلافة بمعناهـا «السـلفية التنظيميـة»، وبين الخلافة المنبثقـة من مبدأ خير زعيم لخير قضية أي الخلافة بمعناها «السلفية الجهادية». فالأولى قـد تنتهـي لأنهـا حالـة حزبيـة أمّـا الثانيـة فنهايتهـا مرتبطـة بـزوال المسببات المنبثقة بدورها عن واقع سياسي يعيش حتمية اللانهاية.

ترى، أوَلهذا السبب أنجز أبو بكر البغدادي ثورته الجهادية، فخرج في زمن الربيع العربي من عباءة القاعدة، ليبني قاعدته الخاصة به، رافضاً استباقياً أن يسجله التاريخ في سجل قادة الزعامة القاعدية، فكانت الداعشية، ممرًّا لتكون «الخلافة» مستقراً، ولو إلى حين، لكن أي حين؟

والآن أضحى بإمكاننا العودة إلى السؤال الجوهري والأساس وهو: هل ما حصل في عالمنا العربي ثورة أم مؤامرة؟ لكن كيف بإمكاننا التقاط حركات الإجابة؟ ووفق أية معايير نبني بل بنينا رهاناتنا؟

وقبل كل شيء دعونا نسأل السؤال الولاّد لهذه الأسئلة وما يتفرع منها من أسئلة شقيقة: ألم نكن نحن الباحثون والمحلّلون والمنظرون والمسيّسون وسمّنا ما شئت من مسميات متطرّفين في مواقفنا ممّا حدث في عالمنا العربي من حراكات؟ ألم يكن القائلون بأنّ ما حدث هو ثورة مصرّاً وجازماً وحاسماً في رأيه فكان لهذا الحسم وذلك الإصرار تداعيات أبرزها التطرّف؟ وألم يكن الرافضون لما حدث من حراكات تسميتها ثورة حاسمين وجازمين ومتطرّفين في رأيهم؟

ماذا يعني ذلك، وماذا يعني هذا التطرّف وماذا عكس ولم يزل يعكس؟ أفلا يعني هكذا تطرّف أنّه في بلاد العرب لا يمكن أن تنشأ ثورة دون أن يلازمها التطرّف؟ والمسألة لا ترتبط أبداً بالموقف المسبق أو الواثق وإنّما ترتبط بنسق في التفكير له امتداداته الفكرية والسياسية والاجتماعية، والأخطر الثقافية.

نعم، نحن العرب نعيش نسقاً معيّناً في الثقافة معشعشاً في

خلايانا وهرموناتنا نكتسبه بالوراثة ويتحكم بكل سلوكياتنا وأفعالنا وردّات أفعالنا، فكيف والحال هذه أن لا نشاهد تعبيراته ومفرداته ومرادفاته في مواقفنا السياسية، وهي المواقف المدفوعة الأجر بغالبيتها، سيّما عندما نتحدّث عن الطبقة المتعلمة خاصة.

ودون أن نذهب بعيداً، دعونا نعطي مثالين بسيطين رغم تعقيداتهما على ذلك، لماذا كان يدور في ذهن أيمن الظواهري قبل ثلاثة عقود رغبة في التخلّص من رئيسه عبد الله عزام؟ وماذا كان يدور في ذهن الظواهري نفسه في الأمس القريب عندما رفض كاريزمية أبي بكر البغدادي وأمر أبا محمد الجولاني برفض العودة إلى راية أبي بكر البغدادي، فقال بأنّ الدولة الإسلامية للعراق وجبهة النصرة تبقى لسوريا، مطلقاً نظرية فصل النطاقين.

بالطبع، نتحدث في هذا المقام عن حدثين لهما أبعادهما الاستراتيجية الكبرى على أكثر من صعيد وسنناقشهما في الصفحات القادمة من الكتاب، إنهما حدثان كانت لهما منعطفاتهما ومفترقاتهما، لذلك كنت حريصا على استخدام عبارة «ماذا كان يدور في ذهن»، كي لا أضع الأمور في صيغة الحتمية.

ونسارع إلى القول بأنّ هذين الحدثين ليسا بيتيمين، فهناك العشرات من الأحداث على هذا المنوال، إلا أنني قصدت الاستعانة بهما على اعتبار أنّنا في حضرة نقاش الظاهرة السلفية الجهادية بأطوارها الثلاث.

ومرة ثالثة نعود ونطرح السؤال المحوري: هل ما حصل في عالمنا العربي من حراكات هو ثورة أم مؤامرة؟

دعونـا للإجابـة عـن هذا السـؤال أن نعود إلى سـلف الرئيس الأميركي باراك أوباما جورج بوش الابن بخطابه السياسي الهستيري الذي اعتمده على خلفية هجمات 11 أيلول/ سبتمبر 2001، فيومها لم يعتبر دبليو بوش أن المشكلة في المتطرّفين الإسلاميين فوجدناه يذهب مباشـرة إلى ما اعتبره جذر المشـكلة وهي الدين الإسـلامي برمتـه، وصـبّ حمـم وحميـم غضبه علـى المملكة العربية بشـكل خـاص مطالبـاً إيّاهـا بتعديل جذري في مناهجهـا التربوية والدينية، مركّزاً بشـكل خاص على المنطلقات الدينية والشـرعية التي تحضّ على الجهاد في سبيل الله.

واسـتمر الخطـاب الأميركـي الهجومـي تـارة علـى الإسـلام وتارة على مسـلمين، عزّزته مراكز الدراسـات والأبحاث الأميركية، وعبّـرت عـن تداعياته الأمـم المتحدة بالقـول إنّ الإرهاب الدولي أضحى يهدّد العلاقة بين الحضارات والأديان وفق ما جاء في أكثر من قرار اتخذه مجلس الأمن الدولي وبشكل خاص عقب هجمات 11 أيلول/ سبتمبر الإرهابية في الولايات المتحدة الأميركية.

وتزامن ذلك مع حملات أميركية منسّقة اعتبرت أن الاستبداد السياسـي فـي الوطـن العربـي وسياسـات كمّ الأفواه التـي تنتهجها الأنظمة العربية بحق شـعوبها لعبت دوراً جوهرياً في تعزيز الفكر المتطرّف، فكانت الفكرة الأميركية متمثلة في أن الديكتاتورية تولّد التطرّف والإرهاب.

وكان المنطق الأميركي يرتكز على اعتبارات تقول بأنّ التطرّف ينشأ ويتكون عندما تجد الشعوب نفسها أمام طريق مسدود للتعبير

عن رأيها في شؤون السياسة والسلطة، فيكون المتنفس أمامها هو تلك التنظيمات المتطرّفة التي تحمل فكراً يذهب باتجاه إزالة هذه الأنظمة والقضاء عليها. فماذا يعني ذاك؟

إنّ ذلك إنما يعني أنّ حالة التغيير من داخل النسق غير الممكنة أصبح بالإمكان الاستعاضة عنها بتغيير يحصل من خارج النسق أي عبر تلك التنظيمات التي تمارس الإرهاب لتحقيق ما تعلن عنه.

وبناء على ذلك، شنّت الولايات المتحدة هجوماً فكرياً وسياسياً على الأنظمة العربية، مطالبة إيّاها بالإقلاع عن الديكتاتورية واعتماد الديمقراطية وما ينبثق عنها من حرية رأي وتعبير وتنظيم انتخابات حرّة ونزيهة تعبّر حقيقة عن رغبة الشعوب العربية عكس ما كان معتمداً في البلدان العربية.

لكنّ الذي حصل هو أنّ الأنظمة العربية، كل الأنظمة العربية قامت بإجراءات شكلية غير جدية، الهدف منها استرضاء واشنطن فقط، ذلك أنّ هذه الأنظمة تعلم علم اليقين أن هكذا إجراءات جدية كافية لوحدها للإطاحة بهذه الأنظمة، ولذلك استمر الوضع العربي على ما هو عليه من طغيان واستبداد وكمّ أفواه ومصادرة لحرية الإنسان - المواطن وحقوقه. فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أنّ تحالفاً كبيراً وشديداً ووثيقاً قد حصل بين المتهمين بمحاولة مصادرة الشرائع الإلهية والمعترفين بمصادرة الحرية، وكانت الضحية الأولى هي الشعوب العربية. لكن كيف تمّ عقد هذا التحالف؟

أثمر الكبت الجماهيري العربي انفجاراً شعبياً أدّى إلى

إزاحة وإزالة أكثر من نظام عربي، ففي مصر وتونس اقتدرت الجماهير الثائرة على الإطاحة بالرئيسين محمد حسني مبارك وزين العابدين بن علي، وأصبح بالإمكان القول بعد وصول الرجل الأول في السلطة العسكرية المصرية الجنرال عبد الفتاح السيسي إلى كرسي الرئاسة في مصر بعدما اقتدر وأفلح في الإطاحة بالإخوان ممثّلين بالرئيس المخلوع والساكن خلف القضبان محمد مرسي، أنّ القيادة العسكرية في مصر لعبت الدور الأبرز في ترك المتظاهرين المصريين ينالون من حسني مبارك، والأمر نفسه حصل في تونس، لكن ليس بالوضوح الكافي الذي عاشه المشهد المصري.

غير أنّ المشهدين المصري والتونسي بأسرارهما وبألغازهما التي ستكشف عنها الأشهر أو السنوات القادمة، لم يجدا إسقاطاً لهما في بلد عربي ثالث، فعملية الانشقاق المؤسّساتي التي عرفها هذين البلدين قابلتها انشقاقات غير ذات قيمة خاصة في ليبيا واليمن، ففي هذين البلدين لم تتلاق أفئدة الجماهير مع شقيقاتها المصرية والتونسية، ففي ليبيا سقط النظام من الخارج بحرب ناتوية ضروس كما كان قد سقط نظام الرئيس صدّام حسين ونجح التوازن الدولي في عدم إسقاط نظام الرئيس السوري بشّار الأسد وفق نفس النمط من السقوط، وفي اليمن خرج الرئيس علي عبد الله صالح من السلطة بموجب تفاهمات لها متطلباتها المعقدة لكنه لم يسقط.

وفي البحرين، الدولة الخليجية الوحيدة التي برز فيها الحراك بشكل واضح وصريح، كان الكباش - التحدي واضحاً أشد الوضوح في تعرية أوراق الشجرة المذهبية هناك، فالنزاع كان بين

الشيعة المحكومين وبين السنّة الحاكمين، وهو ما يعني أنّ ما حصل في تلك المملكة الخليجية، ليس بثورة. فكل ما حدث في المملكة العربيـة البحرينيـة هـو أنّ إيـران تسـلّلت كعادتها بيـن المفاهيم ثم الميادين بقصد إحداث خرق ما، لكن درع الجزيرة كان بالمرصاد فسـقط المشـروع جزئيـاً وليس كليـاً لأن الأرض البحرينية لم تزل جذّابة لآمال معلّقة على خرق ثوري هنا أو هناك.

وحتـى أن مـا يحصـل فـي العراق اليوم ليس بثـورة وإنما هو انتفاضـة لطـرف معيّـن أو طيف معيّن له مظالم معيّنة ستتوسّـع بها لاحقاً.

دعونا معاً نضع المعادلة العربية على حقيقتها لنبحث في حقيقة الثورة، فنقول بأن كل الشعوب العربية في كل البلدان العربية، باستثناء لبنـان، تعيـش نفس النمط في الشـكل والمضمون من اللاديمقراطية ومن التعسّف والاستبداد، وإن أردت أن تحدثني عن ثورة فحدّثني عن ثورة شاملة لا تبقي ولا تزر من كل الأنظمة العربية، وإن أردت أنت أن أحدّثك عن ما حصل في بعض بلاد الحراكات فلنكمل معاً القصة. فلنكمل لنعثر معاً عن جذور داعش ومفاعيله.

وإنّنـا إذ نكمـل فلنقـول، بـأنّ الخطـاب الأميركـي سـقط في الحـراكات العربيـة، وبـأنّ خطـاب أصحاب المشـاريع الاعتراضية علـى سـلوكيات النظـام العربـي أيضـاً سـقطت مـع الأميركيين في الفوضويات العربية.

نعم كل هذا وذاك وغيرهما سـقطوا في المسـتنقعات العربية الرخـوة للغايـة، بدليل أكثر من حاسـم وهـو أنّ الربيع العربي كان

عليه أن ينجز ما ظنّه الأميركيون ونظَّروا له وبشَّروا بصيرورته.

ألـمْ يقـل الأميركيـون ليلاً نهـاراً ومنذ يوم 11 أيلول/ سـبتمبر غير المجيد بأنّ نشـر الديمقراطية والحكم الصالح ومعه الرشـيد، لا شك سيؤدي إلى القضاء على التطرّف والإرهاب رويداً رويداً؟

ألم يفرض الأميركيون على الحكام العرب الذين يمونون عليهم صياغة نظام سياسي دستوري جديد مرتكز على الديمقراطية والحق في التنفس والصمت ليسدوا الطريق على التطرّف والإرهاب؟

لقد قالوا كل ذلك وأكثر، ومن يريد المعرفة أكثر حول التوصيات الأميركية، فليعد إلى وثيقة مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي قدمته الولايات المتحدة لبلدان المنطقة بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

لم يتحقّق ما طالب به الأميركيون على الإطلاق، هذا صحيح، لكن الذي تحقق هو ما تجاوز التنظير الأميركي، فالذي حدث هو أن الشـعوب العربيـة حرقـت كل مراحلهـا عندمـا فقدت الأمل في أنظمـة حكـم ركّبهـا الأميركيون على الشـعوب العربيـة، هذا ما تمّ إبرازه وتصويره وتظهيره، لكن هل هذا ما حصل فعلاً؟

لنسلّم جدلاً أنّه حصل، فهو حصل إذن عندما نشبت الثورات العربيـة وعندمـا شـعّ الربيع العربي، وهـو ما يعني أنّ الثورة الثائرة علـى الاسـتبداد واللاديمقراطيـة، عليها أن تحقـق هدفها المزدوج، أي شـيوع الديمقراطيـة بدل الديكتاتوريـة أولاً، وتفجير آخر معقل للتطرّف والإرهاب ثانياً. كيف لا، والمسبّبات الرئيسة للإرهاب قد أُزيلـت ويتـم العمـل على إزالة ما تبقـى منها. لكن هل حصل أمر من هذين الأمرين؟

لا لـم يحصـل ذلـك علـى الإطلاق، أمّا الـذي حصل فهو أنّ هناك تنظيماً يدعى داعش وُلد ولادة أكثر من طبيعية، ويُجافي الحق والحقيقة كل من يدّعي ويقول أن ولادة داعش كانت ولادة قيصرية.

دعونـا إذن نتّفـق علـى المعادلة الرياضيـة الأولى بامتياز وهي أن داعش هو الابن الشرعي للربيع العربي.

ودعونا نتفق على المعادلة الثانية وهي أنّ هناك تخريفاً أصاب منطـق الربيـع العربـي، فلسـنا أمام ثورة ولا أمـام فصل مرتقب من ديمقراطية عربية.

وإنّ كل ذلـك يطـرح سـؤالاً مركزيـاً: أن ينهـض حراك معيّن ويكون أبرز تجلّياته نشوء تنظيم في غاية التطرّف، فماذا يعني ذلك؟

لكـن لنقـرّب المجهر أكثر ونمسـك بالخارطة الثورية العربية، فسـنلاحظ أن في كل من مصر وتونس واليمن وليبيا وهي الدول العربيـة التـي تمّ الإطاحة فيها بالأنظمة الحاكمة، عادت التنظيمات الإسلامية المتطرّفة للعمل وبنشاط ملحوظ وقد سبق وأبرزنا ذلك، بينما في الدول التي لم يزل العنف والقتال بين النظام والثوار قائماً، سيّما في العراق وسوريا، فسنجد أنّ الكلمة الفصل في المعارضة المسـلحة هناك هي للتنظيمات الإسـلامية المتطرّفة وعلى رأسـها تنظيم داعش.

فمن أعطى الأوامر للتنظيمات الإسـلامية المتطرّفة أن تنشـط في مصر وتونس وليبيا واليمن ولماذا؟ ومن أعطى الأوامر لتشكيل داعش ليبني دولته في العراق وسوريا ولماذا؟ وهل أنّ الآمر واحد أم أكثر؟

الفَصْـلُ الثَّالِث

داعش بين الجيل الإرهابي الوسطي والجيل الإرهابي المتوسطي

وأصبح للتطرّف دولة، بل قلْ وأصبح للإرهاب دولة تسـمّى «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، بدأت كتنظيم إقليمي داخل العراق تحت مسـمّى «الدولة الإسـلامية في العراق» وتمدّدت نحو سوريا ليولد داعش الذي نُودي «كخلافة» بالمعنى الديني ومشروع دولة بالمعنى المدني للكلمة.

بالطبع، هي دولة بمنظور مؤسّسيها وعلى رأسهم زعيمها أبي بكر البغدادي، الذي قرّر قلب الطاولة على كل المفاهيم القانونية، فالعالم الدولي الذي كان مختلفاً حول ماهية وصفة فاعلي الإرهاب ومرتكبيه ومنفّذيه، ومنقسماً بين قائل بإرهاب أفراد وجماعات ومنظمات وإرهاب دول، وبين قائل بإرهاب أفراد وجماعات ومنظمّات مستثنياً الدول من عداد الفاعلين والمرتكبين للإرهاب، دخل هذا العالم مع «الدولة الإسلامية»، في مستنقع جديد من التحديد والتعريف، لمجموعة من الأسباب، لا تتجاوز التسمية أي «الدولة الإسلامية» أن تكون إحداها.

أين نضع إرهاب داعش إذن وأين نضع إرهاب «الدولة

الإسـلامية» وأيـن نضـع إرهـاب «الخلافـة»، وهنـا مكمـن الخطر، «فالخلافة» الإسـلامية تمارس الإرهاب وهي التي يجب أن تكون عنواناً للرأفة والعطف والاستيعاب، وفي المعارك والفتوحات التي يحدث فيها القتل، فهي التي يجب أن تتحلّى بالقتل المجيد الطيب، فلا يجب أن تقطع شجرة ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً.

أيـن نضـع إرهـاب داعـش الدولة و«الخلافـة»، هل نضعه في إطار إرهاب الأفراد أم إرهاب الجماعات أم إرهاب التنظيمات أم إرهاب الدول؟

لـو تركنـا المضمون والجوهر جانبـاً، وتناولنا داعش والدولة الإسلامية في الشكل، وقمنا بمقارنة بين داعش والقاعدة، لتوصلنا إلى نتيجة ما كانت يوماً تخطر ببال بشر، وهي أن إرهابيي داعش ليسـوا مجـرّد جماعـات ومجموعـات متناثـرة هنـا وهنـاك تقطف مجموعـة مـن النـاس هنـا وهنـاك كضحايـا لأفعالهـا وممارسـاتها الإرهابيـة، وهو أسـلوب في الإرهاب امتـازت به القاعدة، فمقاتلو داعش هم أشبه بجيش نظامي ظاهرين للعيان في الكثير من مناطق السيطرة وغير السيطرة، وفي مناطق النفوذ وغير النفوذ.

أكثر من ذلك، فجيش داعش يقوم بشـنّ عمليات حربية هي أقرب إلى الحرب النظامية وظهر ذلك في الموصل والرقة وغيرها مـن مناطـق أخـرى، وعندما يقوم هذا الجيـش الذي تجاوز تعداده الثلاثيـن ألـف مقاتـل بعمليـة إقتحـام منطقـة بعدما يكـون قد قتل «العـدو»، فإنـه يبقـى في هـذه المنطقة وبالمنطق العسـكري يحتلها بانتظار معركة أخرى يقوم بها العدو لاستعادتها فنشهد هناك معركة

ثالثة يمكن تسميتها بمعركة «الرد».

وإنّ كل ذلك لا يعني أن داعش قد أقلع عن أسلوب القاعدة الشهير بتفجير السيارات المفخخة والانتحاريين، فداعش لم يتخلّ عن هذا الأسلوب في الصراع العسكري لا بل اعتمده، لكن بطريقة مزدوجة، فهو اعتمده أولاً كواقعة إرهابية منفردة، واعتمده ثانياً كخطوة عسكرية لازمة لإنجاز خطوة تليها، فكان هذا الاعتماد واضحاً في هجوم داعش مؤخراً على فوج 117 السوري، فلقد سبق عملية الاقتحام والنزال المباشر بين جيش الدولة الإسلامية وجيش الدولة السورية، إرسال داعش لشاحنتين متفجرتين يقودهما انتحاريان كان الهدف منهما تمهيد الطريق للاقتحام الشامل والكامل الذي سيقوم به الآلاف من جنود الدولة الإسلامية.

يبدو واضحاً إذن أن إرهاب داعش ليس بإرهاب أفراد ولا بإرهاب جماعات، ولا بإرهاب تنظيمات، فهو يقع بين إرهاب التنظيمات والمنظمات وبين إرهاب الدول، فنحن أمام نمط جديد من الإرهاب شديد الخطورة، قصد أن يخلط الأوراق حول المفاهيم الدولية الراعية للإرهاب.

ويبدو واضحاً أكثر أن الأسلوب التنظيمي لداعش والدولة الإسلامية مختلف اختلافاً جذرياً عن أسلوب القاعدة، فعندما يتحدث الباحثون في ملفات القاعدة والجماعات الجهادية ويقولون بأنّ القاعدة تحولت إلى فكرة، كانوا في قولهم هذا يريدون الإشارة إلى حجم مخاطر القاعدة المبنية على عوامل وشروط كانت ولم تزل هي الرئة التي تتنفس منها القاعدة ومنها الفقر والاستبداد

والاحتلال الغربي الأميركي لأراضي العرب والمسلمين.

وهم إذ قالوا بأنّ القاعدة تحولت إلى فكرة، فذلك ليقولوا بأنه أصبح بمقدور بضعة أشخاص يشكلون خلية ما ويؤمنون بفكر القاعدة ونهجها، أن يفجّروا وينسفوا ويقتلوا دون الرجوع إلى قيادة معيّنة.

إنّ هذا الشكل من العمل بالرغم من إيجابياته في عين القاعدة ومن آمن بها إلاّ أنّ له سلبيات ربما تجاوزت إيجابياته، فإذا كانت أهم إيجابياته متمثلة في حرية العمل ومرونته بحيث يحدث التنفيذ بعيداً عن رقابة التواصل والاتصال بين المجموعات والقيادة من قبل رجال الأمن وأجهزة الاستخبارات، إلاّ أنّ أخطر سلبياته تمثلت في تناقض بعض الأعمال الإرهابية المنفّذة مع الاستراتيجية العليا للقاعدة، ولطالما دفعت القاعدة أثمان ارتجال بعض الجماعات المنضوية تحت ألويتها.

هذا الأسلوب في الصراع ذبحه داعش ولم يبقه حياً، فأي عمل عسكري هجومي انتحاري أو انغماسي أو اقتحامي أو احتلالي يجب أن يكون نتيجة لقرار من الهرم القيادي، ففي زمن الدولة الإسلامية، من الطبيعي أن يحدث ذلك، وإنّ سببين رئيسيين بنظري يقفان وراءه: الأول مرتبط طبعاً باستراتيجية الدولة الإسلامية، لكن الثاني مرتبط بالفصل المطلق الذي أراد «الخليفة» البغدادي إنجازه بين دولة «الخلافة» وبين تنظيم القاعدة؛ فأن يسمح «الخليفة» بإنشاء مجموعات تقاتل بناء على فكرة، فهذا يعني أن الحصاد ضائع بين الدولة الإسلامية وبين القاعدة، سيما وأن الفكرة هي نفسها طالما أن الفريقين ينتميان إلى السلفية الجهادية، فضلاً عن أن

رغبة البغدادي في إنهاء القاعدة لحساب الدولة الإسلامية يفرض عليه أن يكون متشدداً في قطف المنجزات الإرهابية. وهذا يعني أن إعلان البغدادي بإقامة «الخلافة»، يتربع الاختلاف في أسلوب الصراع في لائحة أهدافه.

نحن أمام نمط جديد بدأ ينتشر وبسرعة البرق في العالم، وبخاصة في العالم العربي، وهو ما يمكن أن نسميه بـ«النمط الاقتدائي»، ولقد رأينا كيف أنّ جماعة أنصار الشريعة في بنغازي الليبية، وبعدما نجحت في إلحاق الهزيمة بقوات الجنرال خليفة حفتر، سارعت إلى إعلان إمارتها الإسلامية هناك، وقبلها رأينا كيف أن جبهة النصرة في سوريا قد سارعت قبل تنظيم أنصار الشريعة إلى إعلان الإمارة ولو كرد فعل على خطوة أبي بكر البغدادي الخلافية.

وبالطبع هذا النمط من الإرهاب يختلف كثيراً عن نمط النظام الذي أقامته حركة طالبان في أفغانستان، ففي هذا البلد عكست هذه الحركة رغبتها الحقيقية في إقامة دولة حقيقية وليس وهمية في أفغانستان، دولة بسلطة وشعب وحدود جغرافية محدّدة هي حدود دولة أفغانستان التاريخية والمعروفة، لكن داعش بإعلانه «الخلافة» وتثبيت حكمه على رقعة جغرافية تمتد على جغرافيا في بلدين عربيين هما العراق وسوريا، يعلن بشكل واضح أنّ العراق وسوريا هما المنطلق للدولة الإسلامية المبتغاة، فحيثما وطأت أقدام مقاتليها، ستكون هناك أرضاً تابعة للدولة و«الخلافة».

وإن هذا المنطق لهو منطق يتسم بالخطورة الكبيرة جداً

لسببين، الأول أن كل أرض العرب والإسلام ستكون محطّ أقدام لداعش بما يتداعى عن ذلك من حروب وصراعات دموية، والثاني أنّ منطق «الخلافة» سيكون جذّاباً لعدد كبير من الشباب الذين سيجدون أنفسهم محمّسين للقتال والتضحية بالنفس لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، طبعاً وفق ما يدور في ذهن قادة داعش ومن ينضوي تحت رايته.

وفي هذا المقام، دعونا نعترف بأمر لا بد من تسليط الضوء عليه لتكون المعالجة مكتملة والصورة أكثر وضوحاً، فأنت تستطيع أن تقول ما تشاء عن زعيم ومؤسّس الدولة الإسلامية أبي بكر البغدادي، يمكنك أن تقول أنه قاتل ومجرم وإرهابي لا يملك أي ذرّة من الإنسانية والرأفة والرحمة، لم يأت التاريخ بمثله، ويمكنك أن تقول أكثر دون أن تضيف أو تنقص ممّا ملك رأسه من أفكار ومخططات وطموحات غير مشروعة، لكنك لا يمكن أن تنكر شدة ذكاء متوحش وَسَمتْ هذا الرجل، الذي في اللحظة التاريخية المناسبة بدقتها ودقائقها وثوانيها أعلن خلافته.

أعلن أبو بكر البغدادي «الخلافة»، وهي «الخلافة» التي أول من يدري أنها غير ذات شرعية والذي أول من يدري أن العرب والمسلمين يحتاجون إلى مئات السنين الضوئية ليعيشوا في كنفها والتي أول من يدري أنها أكثر من ترف ورغد عيش عند كل الشعوب العربية والتي أول من يدري مُنى العربي في أن يعيش مؤمناً متحصلاً على لقمة عيش وبقعة استقرار.

أعلن زعيم الدولة الإسلامية «الخلافة» وهو العالم بأن منطقها

أي منطـق «الخلافـة» غير متوقف على مناطقها وامتدادات مناطقها ونقصـد تحديـداً المنطلـق العراقـي السـوري، وإنمـا متوقـف على متطلبات واشتراطات موضوعية هي شبه مستحيلة، لكنه رغم ذلك أعلن «الخلافة» وبصرامة فائقة.

أعلن أبو بكر البغدادي «الخلافة»، في محاولة إقصائية إلغائية لـكل التنظيمـات التـي تحمل الفكر السـلفي الجهـادي، ولقد أراد إظهارها بصورة التنظيمات المقاتلة دون أفق ودون مشروع واضح المعالـم، وعلـى رأس هـذه التنظيمـات تنظيم القاعـدة الأم الولاّدة لكل فروع السـلفية الجهادية، وحتى «الخليفة» البغدادي نفسـه هو ابن القاعدة الأم، فالكل يشترك في الفكر والمعتقد، لكن التكتيك والهدف انشطر مع أبي بكر البغدادي.

إنّ مـا أراد «الخليفـة» البغـدادي قولـه بالإعـلان عـن داعـش أولاً وبإعلان «الخلافة» ثانياً وبتأسـيس الدولة الإسـلامية ثالثاً هو أن القاعـدة أضحـت تنظيمـاً هرمـاً وأن قادتها وعلى رأسـهم أيمن الظواهري باتوا خارج التاريخ لا بل يشكلون خطراً على المشروع الجهادي الذي يجب وفق البغدادي أن يسلك طريقه السليم.

ولقد أثمر زرع أبي بكر حصاداً وذلك عندما سمعنا وشاهدنا حجـم الانشـقاقات والتحـولات التـي حدثـت في فـروع القاعدة، فبالإضافـة إلـى داعـش التنظيـم انخرطـت فـي الدولـة الإسـلامية تنظيمـات كانـت معلنة البيعة للقاعـدة والظواهري، فغيرت وجهتها وأضحت تبايع «الخليفة» ودولته.

وهنـاك تنظيمـات نخـر الخـلاف قادتها وتمّـت تصفيات فيما

بينها وكله بسبب أن هناك «خلافة» قد أبصرت النور، فكان السؤال المغناطيسي: كيف نترك «الخلافة» ونبقى مع القاعدة التي تنحسر وتنحصر رويداً رويداً، كيف لا نلتقط الفرصة وهناك أمل يشع من وجه أبي بكر البغدادي، كيف لا نعيد الكرّة وهناك دول ومشاريع تبحث عن نيل رضا «الخليفة» واسترضائه، لأن في جعبة أحلامه الكثير ممّا يجعلنا نبتزّ أولئك الذين يجدون فينا حاجاتهم التي لا يمكن أن يحققها غير «الخليفة».

وهكذا فإننا نرى ونشاهد حالات فكّ العقد والبيعة مع القاعدة للانضمام إلى الدولة الإسلامية ومبايعة «الخليفة»، لكننا لا نجد هجرات عكسية من الدولة الإسلامية باتجاه القاعدة أو حتى للاستقلال عن داعش.

وهناك من يسأل ويطرح السؤال الأساسي والجوهري فيقول: أليست بدايات داعش والدولة الإسلامية تشبه في ظروفها ومضامينها نفس الظروف والمضامين التي كانت سائدة عندما قاد الشيخ عبد الله عزام المجاهدين في أفغانستان لمقاتلة الشيوعيين الكفار هناك، وحصل يومها على دعم دولي افتُتح بالولايات المتحدة ولم ينته بممالك عربية تملك المال والنفوذ والأحلام والمخاوف.

ويعود السائلون أنفسهم فيتوصلون إلى نتيجة ساطعة في عقولهم وهي أن حصول داعش والدولة الإسلامية على المال والدعم، سيجعلنا قوة إقليمية كبرى تتجاوز حتى القاعدة في عزّها وذروتها، فنغتنم الفرصة لنحقق آمالنا الإسلامية بقوة السيف، سواء اقتضى الأمر أم لم يقتض.

الفَصْــل الــرّابع

داعش بين شهب إقامة دولة ولهب إحاطة دول

بعد ما قدّمناه في الفصل السـابق حول اختلاف منهج الدولة الإسـلامية الإرهابـي عـن منهج القاعدة، ومـا تقدّم عليه من حقيقة تمركـز داعـش بيـن الهيكل التنظيمـي والهيكل الدولتـي، ومخاطر الاختـلاف والتمركـز بـكل أبعادها ومضامينها، يصبح السـؤال عن جدية داعش في تأسيس دولة حقيقية أمراً لا تردّد بشأنه، فهل فعلاً يهدف داعش إلى تأسيس دولة أم أن الأمر لا يعدو أن يكون صيغة معيّنة لتحقيق أهداف معيّنة؟

وإذا مـا كان «الخليفـة» أبـو بكر البغدادي ذاهباً بالفعل باتجاه تأسـيس دولـة، فعلـى أية صـورة ووفق أية مفـردات وبناء على أية أسس؟

ثم ما تداعيات هذا البنيان الفكري لزعيم الدولة الإسـلامية، وهـل يمكـن أن تصـل هذه التداعيات إلى حدودهـا القصوى التي تتجاوز خطوطاً حمراء، لا تقبل بها حتى الولايات المتحدة؟

فـي واقـع الأمر، تتـراوح إجابات الكتاب حول هذه الأسـئلة بين مدرسـتين، مدرسـة لا تقرأ في نشـوء داعش ونهجه أية أبعاد

استراتيجية فتتعاطى مع داعش وفق منطق الذم والقدح والفضح، ومدرسة أخرى حاولت قراءة داعش بمحتواه السياسي العميق، فتوصلت إلى فكرة أن ما يسعى إليه داعش يعدّ خطيراً وله أبعاد لا تقف عن حدود الإرهاب العبثي المتطرّف.

وبالنسبة إلى المدرسة الأولى، والتي اتسمت قراءتها لداعش بالأدبية أكثر منها السياسية، فهي تعيد ظاهرة داعش أو تحصرها في إطار ما أسمته بـ«الإنتفاخ الذاتي بمحاولة مصادرة الشرائع الإلهية» الذي له تداعيات على داعش قبل المجتمع، فالمسألة عند القائلين بالانتفاخ تتصل بهمجية داعش وتطرّفه وتكفيره للآخر ولسخطه على الأديان والحضارات، والعدو هو دوماً الآخر؛ الآخر الذي لا يتدعشن، ونقطة على السطر بعد نقطة دم تنزف من الرأس.

لنتابع معاً ما كتبه أحد روّاد هذه المدرسة حيث يقول حرفياً[3]:

»تجتاح الأصوليات هذا العالم بجميع أديانه، أمّا التي تؤكد حضورها عندنا (ويقصد بلاد العرب)، مثل القاعدة وداعش، فإنها وإن كانت تعاني من الانتفاخ الذاتي بمحاولة مصادرة الشرائع الإلهية ودعم مال النفط الذي لا يجد تثميراً له إلاّ في الأصوليات، فإن الانتفاخ الذاتي لديها يؤدي إلى تدمير الذات، تدمير مجتمعها، وارتكاب أبشع الممارسات تجاه ما تظن أنه هو الآخر في داخل مجتمعها. يدمّر داعش الجماعة المسيحية في الموصل، ينطلق من تصنيفهم وكأنهم الآخر الداخلي، ثم يتجه إلى وضعهم خارج المجتمع عن طريق الجزية أو فرض اعتناق الإسلام.. في البلدان التي تشكل مسرحاً لنشاط داعش حرب أهلية. لكن ما يفعله هذا

تجاه المسيحيين والأقليات الأخرى، هو ممّا يندى له الجبين، وهو ما يلحق العار بديننا وبتاريخنا وتراثنا؛ هو أشبه بالانتحار الذاتي الجماعي.

لدى هذه الجماعة تنتفخ الذات وتتعاظم تجاه الموضوع (وهو في هذه الحالة الأمر المستبعد والمقصي) وتسعى لتدميره.

يقول أحدهم: هو انفجار الإسلام بين أيدينا، وهو في حقيقته انفجار المجتمع الإسلامي. أصولية الإسلام السياسي لا تقدر سوى على نفسها. أصولية الغرب الدينية تفرض العقوبة والإبادة على الغير الخارجي فهي الأقوى وهي الأكثر قدرة على ذلك. وأصوليتنا تفرض الأمر نفسه في الداخل» (انتهى الاقتباس).

يبدو واضحاً إذن أننا بهذا المنطق التصويري لداعش، أنه مجرد جماعة إلغائية إقصائية همجية متوحشة مناصبة العداء الغريزي للمسلمين والمسيحيين، لا بل وكل بني البشر، وبأن مشروعه الوحيد هو القتل والفتك والذبح والإعدام بأبشع الطرق والأساليب التي مرت على البشرية.

غير أن الأمر ليس على هذا النحو وفق المدرسة الأخرى، فهناك من يذهب بعيداً في داعش والدولة الإسلامية ليرسم مخاطر تتجاوز كل وحشية عدمية لداعش، فحتى الوحشية يضعها في قالب سياسي رفيع المستوى، أقلّه أن القتل لا يمارسه داعش حباً بالقتل وإنما لتحقيق أهداف مرسومة بدقة لها مفرداتها وأبعادها.

إذن هناك من يقول بأن داعش يثبت يوماً بعد يوم أنه ذاهب فعلاً باتجاه إقامة دولة، فجهاديته ليست بجهادية عبثية، إنها الجهادية

المؤسّسة بكل جدية لدولة[4]. لكن هل هناك من المؤشرات التي تدلّل على خلفية بناء الدولة في ذهن «الخليفة» وأعوانه؟

للإجابة عن هذا السؤال، دعونا نناقش معاً الحقائق التالية:

في كل الخطوات العسكرية والسياسية والإعلامية التي قام بها داعش منذ تأسيسه، نلاحظ دون كبير عناء أنه لم يبحث عن أميركا لمقاتلتها، لا بل إنه لم يحاول قط الاصطدام مع الغرب، وهو بذلك مختلف عن الطور الجهادي الثاني الذي مثلته القاعدة التي جاءت نظريتها لتقول بأن سحق العدو القريب أي النظام السياسي العربي الذي تعتبره كافراً وفاسقاً ومفسداً يتطلب سحق العدو البعيد وتقصد به العدو الأجنبي الحامي للأنظمة العربية. وهو ما يعني أن داعش عاد إلى نظرية الطور الجهادي الأول الذي صوّب إرهابه مباشرة صوب العدو القريب للإطاحة به وبناء دولته الإسلامية.

ودعونا في هذا المقام أن نستبق أي تحليل حول ماهية داعش ومن يقف خلفه، لنقول بأن عدم إعلانه الحرب على الغرب وأميركا ومن ثم وهنا الأهم، عدم مقاتلته لأميركا وللغرب، لا يمكن أن يقدم جواباً حتمياً أو حتى أوليّاً حول تحالف ما أو تفاهم ما أو علاقة ما بين الدولة الإسلامية وأميركا خاصة، فالأمر مرتبط بتحديد داعش لأولوياته وبتعريف لماهية أهدافه القريبة والمتوسطة والبعيدة، بدليل أن الجيل الثاني للجهاديين ممثلاً بالقاعدة، عندما صبّ حمم إرهابه على الغرب وأميركا وبلغ ذروة حربه على أميركا عندما نفّذ هجمات الحادي عشر من أيلول، لم يسلم من التجريح والذم والدعوة إلى مقاتلته وتخليص البشرية منه، وكان ذلك من

عرب ومسلمين قبل أن يكون من الغرب وأميركا.

ولربما هناك دواع ومبررات وظروف ووقائع حقيقية دفعت قادة داعش والدولة الإسلامية إلى معاكسة القاعدة وتبنّي قاعدة مقاتلة العدو القريب مباشرة، وهي انه في طول زمن القاعدة كانت الأنظمة العربية قوية، فكما هو معروف، القاعدة نشأت في ظل نظام عربي متين وشديد[5]، لكن في زمن داعش والدولة الإسلامية، فقدت الأنظمة العربية سمات القوة والشدة والمتانة، فأنت في حضرة ربيع عربي، لم يترك دولة عربية تملك أدنى مقومات الصمود فكيف له أن يترك نظاماً عربياً قوياً، وأنت في زمن الربيع العربي أمام تقاتل عشائري وقبائلي وطائفي ومذهبي وعرقي وقومي وإثني وطبقي، والدولة العربية هي الضحية، وأنت في زمن الخراب العربي أمام دول تنتظر العبوة الشعبية التي ينتظر أكثر من نظام عربي ميعاد تفجيرها.

لذلك نعود ونكرر حقيقة واضحة ساطعة توصلنا إليها وهي أن داعش هو الابن الشرعي للثورات العربية، لدرجة أننا لو تواطئنا مع نظرية المؤامرة لقلنا بأن الربيع العربي ما فجره من فجره إلا لينجب داعش وتنتهي مهمته. ترى، ألهذا لم يكمل الربيع العربي فصوله فنأى بنفسه عن دول ربما لو وصل إليها لهيبه لما كان داعش؟

ومن المؤشرات التي تدل على ذهاب داعش نحو بناء دولة هو نهج الواقعية السياسية الواضحة الذي اعتمده منذ نشأته وحتى اللحظة واعتقد أنه نهج سيظل يعتمده وبشكل تصاعدي في

المرحلة أو المراحل المقبلة وفي ظروف ستكون أكثر مناسبة لها.

وتتجلّى هذه الواقعية في أكثر من محطة سلوك مارسه داعش وأرسل من خلاله أكثر من رسالة لكل من يعنيه الأمر. فشدّة الوطأة وحجم القساوة التي أفرغها داعش بحق الشيعة العراقيين خصوصاً، وانعدام خطابه من مفردات التهديد ضد إسرائيل التي هي مقياس الصدق في الجهاد، شكّلا أهم محطتين توقف عندهما المناهضون لداعش والراذلون له ولممارساته، وهم بالمناسبة كثر ومن شتى الطوائف والمذاهب والأحزاب والتيارات السياسية على امتداد العالمين العربي والإسلامي.

غير أن داعش لم يدر أذنه لهكذا كلام فظل مستمراً في نهجه الذي لم يخفه بل عبّر عنه علناً وفي أكثر من مناسبة، فإعلان بعض الحسابات المحسوبة على داعش أن مقاتلة من أسمتهم المرتدين والمنافقين مقدمة بالنسبة لها على تحرير بيت المقدس، كان قد جاء كرد على برود داعش حيال العدوان الإسرائيلي على غزة في تموز 2014، كما أن داعش برّر التعاون مع بعثيين في الوقت الذي لم يتسامح فيه مع قاعديي جبهة النصرة، وذلك بقوله بأن هؤلاء البعثيين يقيمون الصلوات الخمس لكن جماعة النصرة هي جماعة مرتدة[6].

أكثر من ذلك، فأحد أصحاب الحسابات المنضوين تحت راية الدولة الإسلامية عبّر علناً عن تمنياته في الذهاب إلى فلسطين لمقاتلة حماس التي وصفها أيضاً بالمرتدة[7] في اللحظات التي كانت فيها آلة التدمير الإسرائيلية تدك قطاع غزة وتقتل الأطفال

والنساء وتدمر المستشفيات والمساجد، بالطبع نحن أمام خطاب لم نسمعه من قبل من أي سلفي جهادي، لا بل فقبل داعش لم يتجرّأ أي تنظيم في الإسلام السياسي على وصف حماس بالمرتدة، وهي التي تجاهد في فلسطين وتنجز البطولات ضد أكثر جيوش العالم قتلاً وفتكاً وتدميراً.

وبلغت الواقعية السياسية عند داعش ذروتها في المفارقة المدهشة التي أبداها داعش في الاختلاف في التعاطي بين المسلمين سنّة وشيعة وبين المسيحيين في العراق، ففي الوقت الذي لا يفكر لبرهة عندما يقتل شيعياً لاعتباره المسبق أنه يشكل خطراً على مشروعه ولأسباب دينية معروفة وعندما يقتل سنياً يقف في وجهه ويظنّه معرقلاً لمشروعه، نجده في عين الوقت يتريث ولم يقتل المسيحيين في الموصل وإن كان لم يتسامح معهم، وهذا أمر له دلالاته البالغة والجديرة بالتوقف عندها ومناقشتها بتأن ورويّة.

إنها البراغماتية في عزّها وفي ذروتها إذا ما أردنا قياسها بالمقارنة، فمن يصدق أن داعش الذي يقتل السنّي والشيعي والأيزيدي وغيره وغيره ممن هم مسلمون، هو نفسه الذي يعفي المسيحيين من القتل؟

فيوم وضع داعش مسيحيي الموصل بين خيارات ثلاث، الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو مغادرة الموصل، رأينا وشاهدنا في لبنان خاصة وحيثما توجد اقليات مسيحية، كيف ارتفع الصوت وسما، فها هو هولاكو العصر الذي لن يبقي ولن يزر، وها هو العيش المشترك في العراق مهدّد، وها هم المسيحيون

الشركاء مع المسلمين في صياغة حضارات بلاد ما بعد النهرين يتعرضون للتصفية المعنوية والإبادة السياسية، وها هو العراق يتم تفريغه من أتباع السيّد المسيح عليه السلام، وغيره من الكلام الذي سمعناه وشاهدناه، وبدأت حلقات التضامن مع مسيحيي العراق وصدحت الدعوات لوقف السلوكيات الداعشية عند حدها، وبالمناسبة كل ردّات الفعل هذه كانت صادقة وحقيقية وخالية من أي متاجرة بقضية المسيحيين، ذلك أن المسلمين هم بالفعل متسامحون ويعتبرون المسيحيين شركاء في الوطن وتجمعهم معهم المواطنة الحقة وليس المواطنة بصياغاتها اللبنانية المتعفنة، وإني على يقين أن زعيم الدولة الإسلامية في قريرة نفسه يدرك ذلك وكان زعيم القاعدة من قبله يدرك ذلك، ولا يمكن مناقضة هذا الاعتبار بممارسات أخرى ارتكبها داعش وقبله القاعدة.

إذن نعود من جديد ونقول بأنّ «الخليفة» أبا بكر البغدادي خيّر المسيحيين بين أمور ثلاث، لكن أبا بكر البغدادي نفسه لم يأمر بقتل هؤلاء المسيحيين كما أمر بقتل الشيعة والسنة من جماعة جبهة النصرة وأحرار الشام في العراق وسوريا خصوصاً. وبذلك فنحن أمام سؤال كبير يفرض نفسه بقوة النصّ والعقل والتحليل والحيرة: أليست المناورات السياسية في حدها الأدنى والبراغماتية في حدها الوسطي ومتطلبات المصلحة العليا للدولة الإسلامية في حدها ما قبل الأقصى، هي وراء تسامح أبي بكر البغدادي مع مسيحيي العراق؟

أعتقد أنه وفق هذا السياق من المنطق السياسي يجب أن

تقرأ رسالة «الخليفة» وليس وفق عملية التهجير بحد ذاتها، نقول ذلك لأن هناك دولة كبرى في الغرب لاقت الدولة الإسلامية في منتصف الطريق، فالأم الحنون لمسيحيي الشرق، ونقصد فرنسا، فاقت داعش في براغماتيته، وذلك عندما أعلنت جهراً وصراحة وجحاظة عن استعدادها لاستقبال مسيحيي الموصل للإقامة في فرنسا، معزّزين مكرمين، في موقف أدهش المسيحيين قبل المسلمين وزرع فيهم استغراباً لم يعيشوه من قبل.

كان المنتظر أن تبادر فرنسا كما غيرها إلى استعجال اجتماع طارئ لمجلس الأمن الدولي لاستصدار قرار يعتبر أن سلوك داعش هو سوك مهدّد للأمن والسلم الدوليين، ممّا يستدعي أخذ قرار بمقتضى الفصل السابع، أضعف بنوده تتمثل في إرسال قوات أممية أطلسية إلى العراق تحمي المسيحيين والمناطق المسيحية في الموصل وهو نفس المنطق الذي ألمح إليه الرئيس الأعلى لحزب الكتائب اللبنانية الشيخ أمين الجميّل عندما اخترق داعش الدولة اللبنانية والدولة السورية وزرع مقاتليه في مُويصل لبنان عرسال، فردًّا على ذلك طلب أمين الجميّل من وزرائه في الحكومة اللبنانية الفارغة الرأس أن تخاطب الأمم المتحدة لإرسال حماية إلى لبنان تحميه من عصف داعش ومن لفّ لفه وحمل رايته وسار على نهجه إلى يوم يريده داعش أن يكون يوم الدين، لكن فرنسا لم تسرق سابقة أمين الجميّل فبقيت في حدود الجغرافيا الفرنسية ودعت الموصليين المسيحيين إلى رحاب تلك الجغرافيا.

لنحلّل معاً تلك الواقعة المزدوجة التي لم تزل تداعياتها معبّرة

عن نفسها حتى كتابة هذه السطور.

من وجهة الدولة الإسلامية، فإن أبا بكر البغدادي يدرك الإدراك بأشده، أن مسيحيي العراق عامة ومسيحيي الموصل خاصة لا يشكّلون وزناً يخلّ بالمشاريع الاستراتيجية المرمية في جغرافيا العراق، والأمر ليس مرتبط فقط بقلّتهم العددية، وإنما بقرارهم عدم الاشتباك العسكري مع أي طرف عراقي، فمصلحتهم لا تقتضي ذلك، وبالفعل نحن لم نسمع يوماً في بلاد الرافدين عن تسمية لتنظيم ميليشياوي مسيحي، هذا أمر لا جدال فيه.

ومن وجهة الدولة الإسلامية، يعلم «الخليفة» أبو بكر البغدادي بأن قتله لمسيحيي الموصل غير المجدي وغير المضيف لبرنامجه السياسي شيئاً، ستكون عواقبه قاسية عليه وعلى الدولة التي يترأسها، فقتله لأبناء العراق المسيحيين سيولّد أعداء له قد لا يكونون في حقيقة الأمر أعداء، ولقد عبّرت المبادرة الفرنسية عن ذلك أشدّ تعبير.

ومن جانب آخر، يفقه أبو بكر البغدادي جيداً أن مسيحيي الموصل يصلحون أن يكونوا ورقة يمكن استعمالها لتوجيه رسالة إيجابية للغرب المسيحي، لكن هذه الرسالة حتى تصل، لا بد من تحريك الورقة المسيحية، فحرّكها وفق الوجهة التي أرادها وكان له ما أراد، لذلك نعود ونقول بأن الدولة الإسلامية لم تبد المسيحيين كما أبادت 1700 جندي من جيش المالكي، بل وضعتهم أمام خيارات لتشكّل هذه الخيارات مضموناً لرسالة قصد البغدادي إرسالها بحمامته الزاجلة، فزجلت في عين الغرب أيّما تزجيل،

ولو إلى حين.

وإنـي إذ أملـك يقينـاً ما بعده يقين، بأن الدولة الإسـلامية في مرحلة لاحقة من الزمن، عندما تتوطد أركان قوتها، وفق ما حدّدته هي، سـتقوم بمبادرة عكسـية، تطلب فيها من مسـيحيي العودة إلى ديارهم سالمين آمنين، مصحّحة خطوتها الأولى ومتذرعة بأن تلك الخطوة كانت ضرورية لدفع المسـيحيين إلى ترك الموصل بقصد حمايتهم من معارك قاسية بين الدولة الإسلامية وأعدائها، وستعثر الدولة الإسلامية على دليل شرعي يبرّر لها خطوتها ذات الخيارات الثـلاث، فيكـون داعش هذه المرة متجـازواً للبراغماتية بمدلولات جديدة ولأهداف واحدة.

ومـن وجهة نظر فرنسـا والغـرب بأكمله، فالإدراك بأن معركة داعش والدولة الإسـلامية ليسـت مع العدو البعيد وإنما مع العدو القريب، المنطلق من اسـتراتيجية وضعها زعيم الدولة الإسـلامية، هـو أمـر كاف لثنـي الغرب عن صناعة عدو جديد لنفسـه، عدو لا يرحم، دون أن يعني ذلك أن الغرب بلحظة سياسية مؤاتية سيعود ليتاجر بسلعة الإرهاب، لكن ليس الآن، أي ليس إكراماً لمسيحيي الشرق وإنما إكراماً لأمور أخرى وفي الوقت المناسب له.

ومن وجهة نظر فرنسا وأميركا والغرب، فإن ما تسعى الدولة الإسـلامية لتنفيـذه وتحقيقـه فـي منطقـة الصـراع لا يتناقـض مـع مصالحهـا لا بـل يتقاطـع في الكثير منه معها، وهو أمر وعاه زعيم الدولة الإسلامية فلعب مع الغرب بمنطق الابتزاز الذي ردع الغرب ومنعـه عـن اتخـاذ موقف هجومي عدائي كرد على مسـلك داعش

بطرد المسيحيين من الموصل.

ويبقى السؤال: أي دولة يريد أبو بكر البغدادي إقامتها، ووفق أي منطق وانطلاقاً من أية مقتضيات وسوابق؟

لو قمنا بمقارنة بين تنظيم القاعدة وبين داعش تتناول الهدف البعيد ممّا يعتبر أنه جهاد تقدّم فيه الأرواح والأموال وكل ما ملكت اليمين واليسار، لتوصلنا إلى نتيجة تفيد بأن كلا التنظيمين يتطلع في نهاية المرحلة الجهادية إلى قطاف الحصاد وهو الدولة الإسلامية. غير أن الفرق بينهما يكمن في أن الجيل الثاني للسلفية الجهادية وبالتحديد القاعدة، لم يكن مستعجلاً في إقامة دولة الإسلام(8)، في حين الجيل الثالث ممثلاً بداعش والدولة الإسلامية هو جيل مستعجل في إقامة دولة الإسلام قبل المفاصلة النهائية مع العدو البعيد.

وإنه ليبدو أكثر من واضح أنّ داعش لا يفترض انهيار الدول التي سيقيم دولته الكبرى عليها، كما إنه لا ينتظر فراغاً في السلطة، فهو يستغل الفوضى ويعمل على تعميقها لإقامة الدولة الإسلامية في عالم نصف واقعي ونصف افتراضي، متجاوزاً القاعدة في هيكيليتها التنظيمية، حيث نجد الدولة الإسلامية تتسم بتركيبة داخلية غير مسبوقة في التنظيمات الجهادية، فالمسألة عندها غير مرتبطة بهيكلية إدارية منضبطة فحسب، بل بتنظيم داخلي فعّال يتلاءم مع متطلبات دولة تعيش نصفها في عالم المنتظر ونصفها في عالم المحقّق.

وإن كل ذلك يفسّر ما يمكن أن نسمّيه بانفرادية العمل

العسكري لداعش، وهي انفرادية يتعانق فيها الشكل مع المضمون، فلقد عكست كل المعارك العسكرية للدولة الإسلامية أو الكثير منها، أنّ داعش ترفّع عن وتجاوز منطق استهداف الدول لهزّ أمنها في الحد الأدنى وابتزازها في الحد الأقصى، فالخطاب العسكري أو الإرهابي الضمني الذي توجهت به الدولة الإسلامية إلى الدول التي استهدفتها أو تلك التي تضعها على خارطة استهدافاتها، يقول أننا لم نعد نكتفي بتفجير هنا أو تفجير هناك، فهكذا تفجير يدلّل على أننا ضعفاء ونسرق الأمن والاستقرار، إن ما نريده ليس تهديد سلم دولة وإنما أخذ الدولة بكاملها كرهينة وكغنيمة.

أنت مع داعش والدولة الإسلامية أمام حالة حربية مختلفة، وأمام حالة مواجهة مختلفة، وأمام منطق مختلف، فكل شيء مختلف في هذه الدولة، وكل شيء سيكون مختلفاً في تعاطي هذه الدولة مع أية دولة موضوعة على خريطة داعش.

لنتعمّق في داعش والدولة الإسلامية أكثر، فماذا سنرى، وماذا سنلحظ؟ سنرى ونلحظ أمراً مدهشاً وغريباً فعلاً، لا أدري إن وقع عقل أحد فيه، سنرى ما لا نراه في حياتنا، انظر إلى داعش كما صوّرناه، هو نصف دولة في عالم المحقّق ونصف دولة في عالم المنتظر، هو كذلك، لكن الـ«كذلك» أيضاً أن داعش ينفّذ غاراته وغزواته ليستولي على نصف دولة في المحقّق ونصف دولة في المنتظر، لننظر إلى الموصل الذي بلعه داعش كما تبلع السمكة سمكة، أليست الموصل نصف دولة في العالم المحقق، أليست عاصمة دولة معاناة السُنّة في العراق وأليست المدينة الثانية في

العـراق بعـد بغـداد، وأليسـت الموصـل هي تلك الدويلـة التي إن سيطرت عليها تكون قد سيطرت على نصف مسـاحة العراق في البعد الجغرافي والديمغرافي، ألم يحصل ذلك لداعش ومع داعش عندما كانت فاتحة غزوته العراقية في محافظة نينوى وبالتحديد في مدينـة الموصـل، إذن الموصـل هـي نصف الدولـة المحقّق، لكنها أيضـاً نصـف الدولـة المنتظـر، أولاً لأن اسـتمرارية وحـدة العراق متوقفـة علـى إعـادة الموصل إلى كنف الدولـة العراقية، وثانياً لأن ولادة الدولة الإسلامية الكاملة يتطلب بقاء الموصل بيد داعش.

لنأخذ عرسال اللبنانية كمثل ثان، أليست عرسال نصف دولة في العالم المحقّق، أليسـت بلدة تختصر في أبعادها السـيكولوجية والسوسـيولوجية والديمغرافيـة والدينوغرافيـة أقل بقليل من نصف عـدد سـكان لبنان، بشـهادة طرابلـس التي لعبت علـى الرموز ولم تتحـاشَ كثيـراً منطـق المذهبيـة عندما سـمع طرابلسـيون رسـميين وعامة صوتاً عرسـالياً فكان الصدى أصدح من الصوت؟ وأليسـت عرسال اللبنانية نصف دولة في العالم المنتظر، ذلك أن عودتها من يد الدولة الإسـلامية إلى حضن لبنان، دونه الكثير من الحسـابات التي بدأ حزب الله أخذها بعين النظر والاعتبار، فحديث يجب أن يُنصـت إليـه حـزب الله بعد أن تضع المعركة هناك حيث الخاصرة التي ظهرت رخوة أكثر من المتوقع، أوزارها وأحزانها، وإن شئت أفراحها؟

وإن شئت المثال الأسطع من هذا وذاك، فاذهب إلى المشهد الكردي، فكل القتل الذي أنزله الرئيس العراقي صدام حسين بحق

الانفصاليين الأكراد، لم ينظر له حتى الأكراد أكثر من كونه جرائم مرتكبة بحقهم، لكنّه لم يهدّد مضموراً كردياً قاضياً بحكم ذاتي يطمح إلى دولة، لكن داعش الذي لم يقتل من الأكراد أكثر مما قتل جيش صدام حسين، كان وقعه أكبر على الشعب الكردي قبل البشمركة وحزبي الأكراد التابعين لمسعود البرزاني وجلال الطالباني، فمع مشروع صدّام حسين كان على الأكراد عدم تهديد وحدة التراب العراقي، لكن مع داعش ممنوع على الأكراد أن يشكلوا عائقاً يقف في وجه «الخلافة» وإن كانوا من سلالة صلاح الدين الأيوبي، مع صدّام حسين ممنوع الانفصال لكن مع أبي بكر البغدادي ممنوع بقاء الاستقلال وممنوع استمرارية الكيانية، أيهما أقسى على الذاكرة الكردية، وأيهما أكثر تهديداً؟ ففي مطلق الأحوال، أنت ككردي تعيش مع صدّام حسين خطراً قائماً لكنك مع أبي بكر البغدادي تعيش خطراً ينتظرك، شعرت ببوادره لكنك لم تذق كل مرارته.

إنها الدولة النصف حقيقية والنصف منتظرة، إنها أخطر وأسوأ ما يمكن أن يتهدّد الآخر، وكم سيئ حظه هذا الآخر المطروح ليس للنقاش، وإنما بانتظار قرار تأخذه الدولة الإسلامية.

والآن أصبح بالإمكان القول أننا عثرنا عن السبب الحقيقي للرعب من داعش والدولة الإسلامية، فإذا كان صحيحاً أن قسوة القتل وشدة وطأة العنف الذي يمارسه داعش بحق الحواجز المقيمة على خريطته ينزل الرعب في القلوب والعقول ويدفع المستهدفين إلى التحذير والتعبير والتبذير في تصوير مخاطره على الإنسانية إن

شئت، لكن الصحيح الأهم هو أن المجهول الذي وضع فيه داعش والدولة الإسلامية أعداءه هو المبرّر الأكبر للرعب، فهذا المجهول حتى يتحول إلى معلوم يجب أن يقتلع السكينة من القلوب.

إذن سقط السيّد حسن نصر الله في مباراة الحرب النفسية أمام غريمه غير المنتظر ولي «الخلافة» أبي بكر البغدادي.

لقد قلت قبل سنوات في كتابي «الأعاصير - من سيحكم العالم في القرن الـ21: أميركا أم مفاعيل المقاومة العراقية»، قلت بأنّ السيّد حسن نصر الله هو كل حزب الله السياسي ونصف حزب الله العسكري[9]، لكني اليوم أقول بأنّ «الخليفة» أبو بكر البغدادي هو كل حزب داعش العسكري ونصف حزب داعش السياسي، نعم هو كل الدولة الإسلامية العسكري، وذلك لأن فكرته أو قراره في إعلان «الخلافة» والدولة إنّما عنى أول ما عنى، أنّ الإرهاب هو الطريق والسبيل الوحيدين لتحقيق الأهداف، أيّاً تكن تلك الأهداف، فالمهم منها هو هدف إقامة الدولة، ليس عنده وإنّما عند تقنية الإرهاب. لكن كيف ذلك؟ بمعنى آخر، كيف يمكن أن تشكل فكرة إعلان «الخلافة» إطاراً يشكل جزءاً من فلسفة الإرهاب؟ هذا هو السؤال الأبعد من أن يكون خطيراً؟

نعيد الفكرة هنا مرة أخرى، وهي الفكرة ذات الملخّص المفيد بأن منطق إعلان «الخلافة» إنّما يعني في منطق الإرهاب، منطلقين من انتهاج داعش والدولة الإسلامية للإرهاب دون غيره من وسائل العنف أو أطره، في سبيل تحقيق الأهداف، إنما يعني هذا المنطق بأنّ الرعب كامن في المجهول، وهو الرعب الذي

ينتظر كل من يقف في وجه إقامة «الخلافة»، فطالما أنّ «الخلافة» يجب أن تمتد وفق الرؤية الشرعية لأبي بكر البغدادي إلى كل بلاد العرب والإسلام، فهذا يعني أن الكل القائم على هذه الجغرافيا هو كل مهدّد. ولكأنما نحن أمام مشهد، وهو ليس بمشهد، وإنما أمام معادلة تقول بأنّ العنصر الأول من عناصر الفعل الإرهابي المستمر هو عنصر قائم طالما أن «الخلافة» لم تتحقّق بكاملها، وذلك لأن التهديد، تهديد الغير هو تهديد قائم. ألم تتفق كل دول العالم، وكل المنظمات الدولية والإقليمية، وألم تنص كل الاتفاقيات الدولية والإقليمية، على المساواة بين فعل الإرهاب وبين التهديد به؟ وألم تبدأ كل نصوص تعاريف الإرهاب بعبارة تقول بأن الإرهاب هو كل فعل عنف أو التهديد بارتكاب فعل العنف..». وحدها جريمة الإرهاب من بين كل الجرائم الدولية وغير الدولية، وحدها انفردت بمساواة الفعل مع التهديد، وذلك لأن التهديد بحد ذاته ينتج رعباً كافياً لتحقيق نتيجة الفعل الإرهابي عندما ينفذ. وبذلك، فأنت مع داعش لا تحتاج إلى تهديد مسبق لتدّعي بأنك هدف مستقبلي حتمي له، فهو هدّدك وهدّد الجميع، عندما أعلن زعيمه إقامة «الخلافة».

وكأنك بهذا المشهد الجديد لجيل جديد من السلفية الجهادية، تجد فيه أبا بكر البغدادي، قد جلس مع نفسه ومع متخصصين وخبراء في قضايا الإرهاب وملفاته، جلسوا ليتباحثوا في الثغرات التي اعترت إرهاب القاعدة، فوجد هؤلاء بأنّ القاعدة عندما عكست قناعتها وعبّرت عنها، وهي القناعة القائلة بأن زمن إقامة

«الخلافة» لم يزل بعيداً، توصلوا إلى أن هذه القناعة شكّلت نقطة ضعف كبيرة في سلوكيات القاعدة وانعكست سلباً على قدرتها في الجذب والسحر والإرعاب. هذا مع العلم، بأن نظرية القاعدة حينها، بحسب اعتقادي، كانت أقوى من نظرية داعش والدولة الإسلامية اليوم، فنظرية القاعدة القائمة على محاربة العدو البعيد وهزيمته، هي نظرية جذابة للسلفيين الجهاديين أكثر من نظرية قتال العدو القريب مباشرة أو على الأقل هكذا يفترض، وذلك عندما نعرف أن العدو البعيد إنما هو وكما ركّزت القاعدة، متمثلاً في الولايات المتحدة والغرب الذي يسرق الثروات العربية ويحتل أراض عربية ويدعم إسرائيل في استمرار اغتصابها لفلسطين بشعبها ومقدساتها[10].

إذن أدرك أبو بكر البغدادي، أن حجّة القاعدة ومبرّراتها في ارتكاب الإرهاب بحق أميركا والغرب أقوى من حجته، ففي نهاية المطاف إن أعداء البغدادي وكما حدّدنا وأوضحنا هم من أبناء دينه ومذهبه، هم من الشيعة والسنة، من أبناء جلدته، هم من أبناء عمّه الأكراد، فكان عليه أن يفتش عن تعويض يسد الثغرة، فكانت «الخلافة» هي الحقل المغناطيسي الجذّاب لمن ظن أنهم يبحثون عن هدف واضح ومحدّد. هذا التعويض، وجد «الخليفة» أنه تعويض يؤمّن قيماً مضافة أخرى، فهو لا يتوقف عند حد جذب مقاتلين يبحثون عمن يبشرهم بخلافة منتظرة، وإنّما يمتد إلى المقاتل نفسه، فهذا المقاتل الموهوم بجنّة عرضها السماوات والأرض، لن يتردّد في إفراز كل إرهابه لتحقيق حلم الخلافة، ترى!

ألهذا السبب يتّسم مقاتلو داعش بهذا الكم الفائض من التبذير في القتل شكلاً ومضموناً، ألهذا السبب يقطع المقاتل الداعشي رأس غريمه بالسكين ثم يضع رأسه على صدره بعدما يكون قد فصله عن عنقه. لا أدري إن عرف الإرهاب تبذيراً في الفتك والقتل والتشويه والتعذيب أكثر ممّا أرتنا إياه دولة الخلافة الداعشية. هناك من يقول بأن هتلر ارتكب مثل ذلك وأكثر بحق كل من وقف سدًّا بوجه مشروع النازية، لكن الليبيين لم يزالوا يفيدون حرقة بأنّ العسكري الطلياني يوم كانت روما تحتل ليبيا وتستعمرها، كان يغتصب المرأة الليبية أمام زوجها وبعد أن ينهي متعته بها يقوم بقتل زوجها، كما أن تاريخ الإرهاب يخبرنا بأن «الحشاشين» كانوا الأوائل في الممارسات الإرهابية المتوحشة.

وعلى أية حال، أريد أن أعلن أنني لست هنا في صدد توبيخ داعش والدولة الإسلامية أو ترذيلهما أو قدحهما أو تحريض البشرية عليهما، فذلك له أهله وأنا لا شأن لي بذلك لا بل وغير قادر عليه أصلاً وأساساً، غير أني في الوقت عينه أدّعي القدرة على تفسير المبالغة في القتل، وإن شئت أسميها الوحشية في القتل، أدعي القدرة على تفسيرها بصفتي متخصّصاً في تفسير تقنيات الإرهاب وأساليبه ووسائله وأدواته.

لنأخذ هجمات الحادي عشر من أيلول منصّة مثلاً، نبحر معاً من خلالها لتفسير وتبيان لاإنسانيات ارتكابات داعش وفظائع ممارساته. فممّا لا شك فيه، أن هذه الهجمات هي هجمات إرهابية أو هجمات ذات طابع إرهابي[11] إن قرّرنا التزام الدقّة في التعبير

خصوصاً أنه لا يوجد حتى اليوم تعريف عالمي دولي جامع مانع للإرهاب، فالاتفاقيات الدولية المعنية بمكافحة الإرهاب قد توقفت عند الأعمال الإرهابية التي يمكن أن تحدث سواء عبر خطف طائرة والابتزاز بركابها أو عبر تفجير طائرة، لا بل إن الاتفاقيات الدولية التي وضعت إنما وضعت بعد كثرة الإرهاب الجوي إن صحّ التعبير، وبالتالي فإن عمليات 11 أيلول لم تخرج عن مألوف الأعمال الإرهابية التي عرفتها البشرية خصوصاً في القرن العشرين. فكان ارتطام الطائرات اللادنية ببرجي التجارة العالميين في مانهاتن الأميركية حدثاً أو حادثاً مضافاً إلى حوادث الإرهاب عبر الطيران.

هذه الهجمات، التي أعود وأؤكد أنها إرهابية بامتياز، هي هجمات في غرضها الإرهابي مشابهة لتفجير السفارات الذي اعتمدته القاعدة أيضاً، فنيروبي ودار السلام هما على سبيل المثال لا الحصر، وشبيهة في غرضها باغتيال القادة السياسيين والعسكريين أيضاً، لأنّ الهدف النهائي من كل هذه الأشكال الإرهابية هو الوصول إلى إرادة القيادة السياسية، المُراد الضغط عليها لاتخاذ قرار سياسي ما أو الرجوع عن قرار سياسي متّخذ، هذا هو منطق الإرهاب وهذه هي لعبته ومنهما تنبع خطورته. القاعدة صبّت حمم إرهابها على الولايات المتحدة والغرب وذلك لأنها كانت تريد هزيمة العدو البعيد، وهو العدو الذي لا يمكن هزيمته حسب وجهة نظر زعيمها الراحل إلا بتذويق الشعب الأميركي المرارة نفسها التي تتحملها الشعوب العربية والمسلمة، دائماً حسب وجهة نظر بن لادن ومنظّري القاعدة، إنه المنطق المخيف الذي عبّر عنه

أسامة بن لادن عقب هجمات 11 أيلول/ سبتمبر وبمناسبتها، وذلك حينما توعّد الشعب الأميركي بهجمات أكثر فتكاً. وكل ذلك نعود ونكرّر بهدف الضغط على الشعب الأميركي من خلال زرع الرعب في قلوب الأميركيين الذين سينقلبون وينتفضون على قيادتهم، أي على الإدارة الأميركية.

بالطبع هذه التقنية في الإرهاب، لم يلجأ إليها الباحث عن المجد، المُعلن عن «الخلافة»، «الخليفة» أبو بكر البغدادي، فهذا الرجل قلّص وضيّق دائرة استهدافاته، فإذا كان الإرهاب اللادني عالمياً وقارياً وحيثما وجدت مصلحة أو نبراساً أميركياً، فإن أبا بكر البغدادي، قرّر مسبقاً عندما حدّد أهدافه بدقة، قرّر أن لا يفلش قوته، وقرّر أن لا يبعث بخلاياه المقاتلة في بلاد «الكفر»، بل على العكس من ذلك عمل على ضغطها، فالمعركة أيها الاخوة ليست هناك، ليست مع العدو البعيد، المعركة هنا، هنا أرض الرباط، هنا في بلاد الرافدين وبلاد الشام، هنا قاعدتنا التي يجب أن تقضي، أول ما تقضي على قاعدتهم وقواعدهم بكل جبهاتها، النصرية والنصيرية. يقول أبو بكر البغدادي لأصحابه ومعاونيه وجنوده (لا يمكن أن نبني دولتنا المترامية الأطراف، لا يمكن أن نعيد المجد للخلافة الصافية إلا على أنقاض الولاية الصفوية) هذا هو خطاب أبو بكر البغدادي.

وفق هذا المنطق البغدادي، أدرك زعيم الدولة الإسلامية أن عدوه متأهب ومتمترس بجانبه، في الشارع الآخر، في الحيّ القريب، في المدينة المحاذية؛ في المحافظة المنتظرة وصول

رجالاتـه إليهـا، أدرك أن بغـداد عاصمـة الخلافة هـي الفاصل بين زمنيـن، واسـترجاعها هو الممرّ الإجبـاري للمفاصلة النهائية. لكن قبل الوصول إلى مشـارف أرض العباسـيين الذين سـيرثهم أبو بكر البغدادي، لا بد من وضع الكل السنّي تحت عباءته، فكان التهديد بالإعلان عن داعش الذي يعني «دولة الإسلام في العراق والشام»، فالإعـلان عـن داعـش هـو بحدّ ذاته رسـالة يجـب أن يفهمها أهل الأنبار ونينوى وصلاح الدين وديالى، وكان له ما أراد، وهنا دعوني أفتـرض أمـراً ربمـا يكـون مجنونـاً بعض الشـيء، وهـو أن معركة البغدادي في الوسط السنّي العراقي كانت معركة مع السُنّة العرب العراقيين قبل أن تكون مع المالكي وجيوشـه، لا بل إن البغدادي أنجـز معركتـه التـي بدأت مـع الموصل لتحقيق هدفين في آن معاً، الأول هو السـيطرة الكاملة على جغرافيا السُـنّة العراقية والثاني هو السـيطرة الأكثر من مطلقة إن اقتدر على ديمغرافيا السُـنّة العراقية، فكان له ما أراد، ووفق هذا المنطق نجح البغدادي في تشغيل سنة العـراق كصحـوات مـا بعد التحرير، لكن ليـس صحوات في وجه القاعـدة الزرقاويـة، وإنمـا بوجه أنفسـهم وبوجه الشـيعة الإيرانيين أو التابعيـن لإيـران في العـراق. إنها لعبة معقّدة ومن الصعب جداً فكفكة تجلياتها. البغدادي وفق هذا المشهد لم يخف تأثره الشديد بزعيم القاعدة في بلاد الرافدين أبي مصعب الزرقاوي الذي خرج بعيداً عن خط القاعدة عندما صبّ المثمر من جهاديته ضد الشيعة العراقييـن، لكنّـه التأثـر المبني عليه، فانطلـق البغدادي أبو بكر من استراتيجية الزرقاوي ليضيف إلى عدوه عدواً جديداً ضمنياً يفهمه

الفاهم في لعبة الإرهاب، فكل سنّي ليس بداعشي هو كالشيعي، هذا ما أراد زعيم الدولة الإسلامية قوله. هو قال نصف هذا بلسانه لكنه قال النصف الآخر بأفعاله، عندما بنى استراتيجيته الإرهابية المختلفة عن كل الاستراتيجيات الإرهابية التي عرفها العالم قبله.

وهكذا ركّب أبو بكر البغدادي منهجه الإرهابي عبر ما يمكن أن نسميه «الإرهاب الأوتوماتيكي»، القائم على رؤية أنّ القدرة على إرهاب السُنّة هي بحد ذاتها فعل إرهابي بحق الشيعة، وبأن إرهاب الشيعة هو بحد ذاته إرهاب بحق السنّة. وبهذا المنهج الجديد في استراتيجيات الإرهاب، يمكن الكشف عن حقيقة ما جرى في الموصل ومن بعدها في مدن ومحافظات العراق السنّية الغالب. فالذي حصل هو أن عناصر الدولة الإسلامية في العراق والشام هم من شكّلوا رأس حربة البداية في الهجوم على معسكرات جيش المالكي، وعندما أنجزوا ما أنجزوه من انتصارات انضم إليهم في العمليات العسكرية وفي عمليات الزحف القاضم، تنظيمات سنّية عسكرية أخرى، لذلك لم تكن الفضائيات ضائعة عندما اختلطت عليها المصطلحات، فهذه الفضائيات استخدمت في البداية كلمة داعش للقول أن ما حصل هو من فعل داعش، لكن بعد أيام، سمعنا وشاهدنا تعدّد المصطلحات، من مسلحين وعشائر وثوار العشائر وغيرها وغيرها. لكن ما الذي دفع باقي الفصائل العراقية السنّية المسلحة إلى النزول إلى أرض الميدان، للمشاركة في عمليات الاكتساح الجغرافي الذي ظهرت وبانت سهولته، على عكس ما كان متوقعاً؟

هنـاك العديـد مـن العوامل يقف وراء ذلـك، لكن هناك ثلاثة عوامـل جوهريـة وأساسـية تعتلـي اللائحـة، أولهـا الحقـد الدفيـن المضمـر مـن سـلوكيات المالكـي ومن حالفـه المذهبيـة والثأرية، وثانيهـا عـدم تـرك داعـش لوحـده يقطف ثمار الانتصار، سـيما أن تلـك الفصائل سـكنت في قلبها وعقلهـا مخيلات كثيرة وهواجس أكثـر تفيـد بـأن الجماهير السـنية العراقية مسـتعدة أن تمشـي حتى خلـف الجـن الأزرق طالمـا أن هـذا الجن الأزرق سـيخلصها من ظلـم المالكي وميليشياته وفق ما تعتقد، وثالثها الخوف من تضاعف قوة داعش التي إذا ما تعاظمت سـتتفرغ لإنهاء هذه الفصائل وقد كانت جبهة النصرة شرّ مثال يحتذى.

الفصل الخامس

داعش بين الرقة السورية والخشونة السعودية

ذلك الذي سبق هو المنهج الإرهابي الذي صاغه زعيم الدولة الإسلامية أبو بكر البغدادي، وهو المنهج الذي أثبتت الأحداث والوقائع أنه أثمر انتصارات هستيرية في العراق ومن بعده سوريا. إنه المنهج القائد لصياغة دولة نواة أرادها «الخليفة» تتمركز بين العراق والشام، ويبقى السؤال: هل كانت ردّات فعل الدول المحاذية للعراق على خطوات البغدادي وخطاباته تعكس رغبته الحقيقية في بناء دولة، بمعنى آخر، هل تلمّست أنظمة عربية جارة للعراق خطراً مدعشاً ومدهشاً جعلها تستنفر خطاها لترميم مقوّماتها والتهيّب والتهيؤ للزود عن دولها وحدودها؟

عقب إطباق الدولة الإسلامية في العراق والشام سيطرتها على الموصل ومحافظة نينوى وقبل أن تكمل زحفها باتجاه محافظات صلاح الدين والأنبار وديالى ومناطق أخرى، سارعت المملكة العربية السعودية إلى إرسال ما يناهز الثلاثين ألفاً من قواتها الخاصة إلى حدودها مع العراق لصدّ أي هجوم يقوم به داعش ويخترق بموجبه صحراء المملكة، واتخذت المملكة الأردنية الهاشمية

إجـراءات مماثلـة فـي دلالاتها، وقبلهما كان حزب الله في لبنان قد اتخذ استباقياً خطوته الأحادية غير المنسقة مع الشرعية اللبنانية في الذهاب إلى سـوريا الحدود المراهقة والى سـوريا الجرود المنافقة والى سوريا المقامات الملاحقة، إنها المقامات التي قبل أن يفجّر العديد منها داعش والتي كان آخرها مقام السيدة زينب، فجّر السيّد حسن نصر الله نداء الحِمى عنها بوجه ثوار قصدوا أول ما قصدوا تفجير المقيم في السلطة الرئيس بشّار الأسد.

هـذه الإجـراءات العربية كانت لها تتماتهـا واكتمالاتها عندما باغت زعيم الدولة الإسلامية العالم وأعلن عن «الخلافة» في ذلك اليـوم التاريخـي، فكيـف تعاطت دول تسـلّل إليها تخـوّف، تجاوز التوجّـس، مـن هذا الإعلان المخيف والمرعب، وهو الخوف وهو الرعب الذين حددنا مسبباتهما المشروعة؟

ممّا لا شـك فيه أن المملكة العربية السـعودية بحكم موقعها الدينـي الـذي تنفـرد بـه عن سـائر الـدول العربية والإسـلامية هي المعني الأول بمنطق «الخلافة» الذي بات واقعاً. فالهجوم الإعلامي الـذي شـنّه الإعـلام السـعودي على خطـوة إعـلان «الخلافة» كان أكثـر مـن معبّـر، ويمكـن القول أنـه وصل إلى حدّ الاسـتنفار بكل مدياتـه. فصحيفـة الرياض السـعودية كانت قد حذّرت ممّا أسـمته «الطروحـات التـي تروّج حول ما يسـمى بعودة الخلافة الإسـلامية ومـن قبـل تنظيم داعـش»، فقالت الصحفية حرفياً «إن الطرح الذي تقدمـه قيـادات الخلفـاء الجدد غارق في التطـرّف بالدين والملبس والحـلال والحـرام، بكل مصنفات الحياة القاتمة، مقدّمين مغريات

الاستشهاد وملاقاة الحوريات بالجنة، وهي الحالة التي أدت إلى استقطاب شباب لا يفرّق بين الحديث الصحيح وضعيف المتن والسند، وهي حركات أخذت الإسلام كمحرّك روحي مغر ومهم كمعطى سياسي وهدف استراتيجي، لأن رصيد قادتها من العلم والدين والثقافة الإسلامية أقرب إلى الأميّة من علم الفقيه المتمكن، وبالتالي فهو استنساخ للخوارج بثوب معاصر وأدوات دعاية وقتل حديثين. وأضافت الرياض قائلة «إن الذين قادوا هذه المنظمات مغامرون رفعوا شعارات عودة الدين من خلال منظورهم، وحتى يضيفوا هالة أكبر تسمو بالخلافة لإعطاء صفة تميّزهم عن حكام الدول الإسلامية الذين يقوّمونهم بأنهم، إما على ضلال أو كفار يتبعون الكفر العالمي الذي تسيّره القوى العظمى في العالم»[12].

وبدورها صحيفة الوطن السعودية، قالت «حين يعلن تنظيم الدولة.. ما أطلق عليها دولة الخلافة ويبايع زعيمه خليفة للمسلمين ويعدّل المسمّى فيحذف العراق والشام ويبقي على الدولة الإسلامية وكأنه يريد أن يمتد بمواقع سيطرته إلى دول ومساحات شاسعة أخرى«[13].

أمّا صحيفة عكاظ فكتبت تقول: «داعش تفكّر وتتصرف خارج إطار التاريخ، ومع ذلك تحاول أن تثير الفتن في الأرض.. بتغييب وعي الشعوب واستقطاب المزيد منهم لمشاركتها في عملياتها الإجرامية وفي المضي في الأوهام التي صوّروها لأنفسهم ولغيرهم من البسطاء والسذج.. وإلا فمن يرهن عقله بمثل هذه السهولة ويقبل تلك الأفعال الشائنة أو يرضى بأن يكون جزءاً منها»[14].

وبتحليل لما ورد في هذه الصحف السعودية الثلاث، لا بد من الانطلاق من واقع أن هذه الصحف هي صحف رسمية وشبه رسمية تابعة للدولة السعودية، الأمر الذي يعني أن محتواها يعكس الموقف الرسمي للنظام السعودي.

وبالتحليل يتبين معنا أن هناك فكرتين أساسيتين عكستهما مضامين هذه الصحف، أمّا الأولى فتتمثل بزرع الشكوك وبذور التبعية في تنظيم داعش، حيث استخدمت صحيفة الرياض عبارة «الخلفاء الجدد»، في إسقاط واضح لما يعرف بـ «المحافظين الجدد»، كرّستها الصحيفة عندما أكملت فقالت «إن قادة الخلافة يتبعون الكفر العالمي الذي تسيّره القوى العظمى في العالم، غامزة بذلك من قناة الولايات المتحدة حيث أرادت الصحيفة القول أن تنظيم الدولة الإسلامية هو من صنيعة الاستخبارات الأميركية، مثله مثل كل تنظيمات الإسلام السياسي التي تتبع إما للولايات المتحدة وإما للمملكة المتحدة، وأما الفكرة الثانية التي عكستها الصحف السعودية، فتتمثل بالمخاوف الحقيقية من امتداد فيروس الداعشية إلى أرض المملكة، وهو ما بدا واضحاً من فحوى كلام صحيفتي الوطن وعكاظ، وكأنما الصحافة السعودية بهذا الاستنفار التحذيري وما بعد التحذيري تعبّر عن مخاوف حقيقية، فهل فعلاً هذه المواقف حقيقية أم مجرد تهويلات لها أهداف أخرى يريد النظام السعودي تحقيقها؟

من حيث الشكل، فإن منطق «الخلافة» يشمل أول ما يشمل المملكة العربية السعودية، تلك المملكة المترامية على أقدس بلاد

العرب والإسلام، وتلك المملكة التي تجسّد الهالة الرمزية الكبرى التي لا تحلّ محلها أية رمزية أخرى، فهناك الكعبة المشرّفة وهناك المسجد الحرام، وهناك ولد النبي وترعرع وهناك سقط الوحي وبدأت مسيرة الإسلام ورسالته. وفي البعد الرمزي ستجد ألف سبب يجعل «الخليفة» أبو بكر البغدادي ينظر إلى المملكة بعين مختلفة ويسمع أحوالها بأذن مختلفة، ويتابع مستجداتها بطريقة مختلفة، ويترقب ردات فعل قادتها والقيّمين على أمرها بفهم مختلف، ويبني خطواته إزاءها بلبنات مختلفة، وهذا أمر يدركه العاهل السعودي جيداً، وإن إدراكه له هو ما قاد مستشاري الملك إلى استخدام مصطلحات محدّدة ومعينة في الهجوم على داعش والدولة الإسلامية. فلقد جاء في خطاب الرد الذي ألقاه الملك عبد الله بن عبد العزيز، وهو خطاب جاء متأخراً عن خطوة إعلان «الخلافة»، حيث انتظر الملك أسابيع عدّة ليقول كلمته والإعلان عن موقفه، جاء فيه حرفياً[15]: «بقلب المؤمن بالحق - تعالى - القائل في محكم كتابه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿... وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ...﴾ هذه الفتنة التي وجدت لها أرضاً خصبة في عالمينا العربي والإسلامي، وسهّل لها المغرضون الحاقدون على أمتنا كل أمر، حتى توهمت بأنه اشتد عودها، وقويت شوكتها، فأخذت تعيث في الأرض إرهاباً وفساداً، وأوغلت في الباطل كاتمة ومتجاهلة لقول المقتدر الجبار: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ...﴾.

إن من المعيب والعار أن هؤلاء الإرهابيين يفعلون ذلك باسم الدين فيقتلون النفس التي حرّم الله قتلها، ويمثّلون بها، ويتباهون بنشرها، كل ذلك باسم الدين، والدين منهم براء، فشوّهوا صورة الإسلام بنقائه وصفائه وإنسانيته، وألصقوا به كل أنواع الصفات السيئة بأفعالهم وطغيانهم وإجرامهم، فأصبح كل من لا يعرف الإسلام على حقيقته يظن أن ما يصدر من هؤلاء الخونة يعبّر عن رسالة نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم الذي قال عنه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

ومن مهبط الوحي ومهد الرسالة المحمدية أدعو قادة وعلماء الأمة الإسلامية لأداء واجبهم تجاه الحق جلّ جلاله، وأن يقفوا في وجه من يحاولون اختطاف الإسلام وتقديمه للعالم بأنه دين التطرّف، والكراهية، والإرهاب، وأن يقولوا كلمة الحق، وأن لا يخشوا في الحق لومة لائم، فأمّتنا تمرّ اليوم بمرحلة تاريخية حرجة، وسيكون التاريخ شاهداً على من كانوا الأداة التي استغلها الأعداء لتفريق وتمزيق الأمة، وتشويه صورة الإسلام النقية.

وإلى جانب هذا كله نرى دماء أشقائنا في فلسطين تسفك في مجازر جماعية، لم تستثن أحداً، وجرائم حرب ضد الإنسانية دون وازع إنساني أو أخلاقي، حتى أصبح للإرهاب أشكال مختلفة، سواء كان من جماعات أو منظمات أو دول وهي الأخطر بإمكانياتها ونواياها ومكائدها، كل ذلك يحدث تحت سمع وبصر المجتمع الدولي بكل مؤسساته ومنظماته بما في ذلك منظمات حقوق الإنسان، هذا المجتمع الذي لزم الصمت مراقباً ما يحدث

في المنطقة بأسرها، غير مكترث لما يجري، وكأنما ما يحدث أمر لا يعنيه، هذا الصمت الذي ليس له أي تبرير، وغير مدرك بأن ذلك سيؤدي إلى خروج جيل لا يؤمن بغير العنف، رافضاً السلام، ومؤمناً بصراع الحضارات لا بحوارها.

وأذكرُ من مكاني هذا بأننا قد دعونا منذ عشر سنوات في مؤتمر الرياض إلى إنشاء (المركز الدولي لمكافحة الإرهاب)، وقد حظي المقترح بتأييد العالم أجمع في حينه، وذلك بهدف التنسيق الأمثل بين الدول، لكننا أصبنا بخيبة أمل - بعد ذلك - بسبب عدم تفاعل المجتمع الدولي بشكل جدي مع هذه الفكرة، الأمر الذي أدى لعدم تفعيل المقترح بالشكل الذي كنا نعلّق عليه آمالاً كبيرة.

واليوم نقول لكل الذين تخاذلوا أو يتخاذلون عن أداء مسؤولياتهم التاريخية ضد الإرهاب من أجل مصالح وقتية أو مخططات مشبوهة، بأنهم سيكونون أول ضحاياه في الغد، وكأنهم بذلك لم يستفيدوا من تجربة الماضي القريب، والتي لم يسلم منها أحد».

بالطبع نحن أمام خطاب للملك السعودي ألقاه لاتخاذ موقف بشأن أكثر قضية هو شخصياً قبل المملكة معني بها، هو شخصياً معنياً بها، لأسباب عديدة أهمها، أن منصب «الخليفة» يعني أول ما يعني أن لا حاجة لمنصب الملك بعد اليوم، هذا ليس منطقي أنا ولا منطق أي محلل، وإنما هو منطق أبي بكر البغدادي، الذي يفقهه العاهل السعودي جيداً، لكن وعلى أية حال، دعونا نحلّل معاً، كيف تجلّى ردّ الملك وهل هو بالرد الكافي على حدث خطير

وخطير جداً، ونقصد حدث إعلان «الخلافة»؟

يبرز بشكل واضح وجود نقاط ست طرحها الملك عبد الله في خطابه هذا، ففي النقطة الأولى اعتبر الملك أن سلوك «الخليفة» هو سلوك فتنة، وفي الثانية اعتبر الملك أن «الخليفة» هو خليفة خائن، وفي الثالثة اعتبره متطرّفاً يقود متطرّفين، وفي الرابعة صوّره كأداة استغلها الأعداء، وفي الخامسة أكد الملك أن سلوك الدولة الإسلامية هو سلوك مؤجج لصراع الحضارات، وأما في السادسة فكان الملك فيها واضحاً وصريحاً وذلك عندما جزم بأن وراء الدولة الإسلامية مخططات مشبوهة ومشاريع مشبوهة. فماذا تعني وماذا تعكس هذه التصوّرات الستة التي صرّح بها الملك السعودي؟

وفي الحقيقة فإن النقطتين الواجب التوقف عندهما هما الرابعة والسادسة، على اعتبار أن باقي النقاط الأربع هي مسائل مألوفة في الخطاب الديني المنطلق من السياسي، وهي مسائل غير محصورة بخطاب الملك والمملكة بل نسمعها في كل الصراعات والكباشات السياسية العربية والإسلامية.

وفيما يتعلق بالنقطة الرابعة، فالملك السعودي اتهم القادة في الدولة الإسلامية بأنهم أدوات يستغلها من أسماهم بـ«الأعداء»، وهنا نجدنا أمام سؤال يطرح نفسه: فمن هم الأعداء الذين قصدهم العاهل السعودي، هل هم أعداء الأمة العربية والإسلامية أم أعداء المملكة العربية السعودية حصراً أم أعداء الدين الإسلامي؟ لم يوضح الملك صفة وهوية هؤلاء الأعداء الذين أشار إليهم دون

أن يحددهم. ودون كثير من التفكير علينا في البحث عن أولئك الأعداء، علينا أن نحذف الولايات المتحدة والغرب من القائمة، فهم حلفاء وليسوا أعداء للعربية السعودية، ودون عناء مشابه أيضاً نحذف القاعدة من قائمة الخيارات، على اعتبار أن الحرب بين الدولة الإسلامية وبين جبهة النصرة وبالتالي القاعدة هي أشرس من أية معركة يخوضها أي منهما ضد طرف ثالث. وهكذا بقي في باقة الفرضيات عدوين اثنين محتملين وهما تنظيم الإخوان المسلمين وإيران، وهنا أيضاً دون عناء تفكير فإنه من المستبعد جداً أن يكون تنظيم الدولة الإسلامية أداة بيد الإخوان المسلمين، فالقوي لا يمكن أن يكون أداة بيد الضعيف، هذا إذا ما ذهبنا إلى أكثر من ذلك وتوقعنا حرباً ضروساً بين التنظيمين عندما يقرّر تنظيم الدولة الظروف المؤاتية.

وهكذا فإنه لم يعد في جعبتنا سوى إيران التي تنظر إليها السعودية كعدو شرس وتسخّر وتجنّد لمصارعته كل ما أوتيت من قوة ومال وجهاد. فهل يمكن أن تكون إيران هي المقصد والمقصود بكلام الملك السعودي، وهل يمكن بالتالي أن نعتبر بأن تنظيم داعش هو أداة إيرانية؟

سنعالج هذه المسألة في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب، لنتفرغ الآن للبحث عن السبب المباشر الذي يجعل المملكة العربية السعودية تتوجس خيفة من خطوات زعيم الدولة الإسلامية أبي بكر البغدادي.

يجيب أحد أبرز المفكرين السعوديين الدكتور عبد السلام

الوايل عن هذا السؤال بالقول بأن بُعد «الخلافة» في داعش يؤشر لهاجسها التوسّعي وبُعد السلفية يؤشر لجهودها في «التكويش» على التيار للسلفي، وإنه بمزج البعدين نكون في خضم تهديد للدول العربية، بخاصة المجاورة للعراق. وبما أن داعش، بحسب الدكتور الوايل، يعتمد السلفية كمنظور شرعي، فإنه من المحتمل، بخاصة مع نجاحاته التي لا يمكن استبعادها في إدارة المناطق التي يسيطر عليها وأذرعه الإعلامية الفعالة، أن تتصاعد شعبيته لدى شعب نشأ على رؤية أن السلفية هي التعبير الأكثر صحة عن الإسلام، ويقصد الشعب السعودي بشكل خاص. ويتابع المفكر السعودي فيقول بأن نجاحات داعش في الموصل قد أفصحت عن إعجاب مكنون في صدور الكثيرين، وإن لم يتحقق لها التمدد جغرافياً خارج أراضي العراق وسورية، فإن الخطير في الأمر هو أن نموذجها قد يلهب خيال أجيال جديدة من الجهاديين، على الأقل لإقامة دويلات شبيهة. وفيما كان إرهاب القاعدة في السعودية يتمحور حول شعار «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، فإن شعار الجيل الجهادي الجديد سيكون إقامة الدولة مباشرة. ولا يجب أن يغيب عن بالنا أن السعودية هي الغنيمة الموعودة التي يسيل لها لعاب الظاهرة السلفية الجهادية، بما يُظن من قابلية قطاعات واسعة من شعبها لتحبيذ تطبيق نسخة سلفية من الإسلام[16]، ينقل جمال خاشقجي تقديرات «سوفان قروب» لعدد السعوديين في سورية بثلاثة آلاف، كثاني جنسية بعد تونس! لذا فإن نجاح «داعش» في التحوّل إلى كيان سياسي في الأراضي التي يسيطر عليها، يمثل تهديداً بمحاولة

استنساخ نموذجه في السعودية.

بالطبع لا يستطيع الدكتور عبد السلام الوايل أن يقول كل الكلام، لكن المقاصد الضمنية التي أراد قولها ظاهرة بشكل أكثر من كبير، ولكأن الأمر وصل به إلى أن يدق ناقوس الخطر ويقول لقادة السعودية، انتبهوا ففي الأمر الكثير، فكلام هذا الرجل السعودي يضعنا أمام طرح العديد من الأسئلة التي أجزم أشد الجزم بأن المسؤولين السعوديين قد توقفوا عندها.

وأول هذه الأسئلة هو: ما الذي يمكن أن يجعل شعبية «الخليفة» وتنظيم الدولة الإسلامية ترتفع ارتفاعاً مخيفاً في المملكة العربية السعودية، فهل هناك من أسباب موضوعية تدفع بذلك الارتفاع؟ وهل أن النسخة الجهادية من السلفية هي النسخة التي يبحث عنها سعوديون كثر ولماذا؟ والى ماذا تؤشر حقيقة أن الجنسية الأخرى الأكبر بعد الجنسية التونسية في صفوف الدولة الإسلامية هي الجنسية السعودية، فإذا كان مفهوماً ومعلوماً بأن الفقر والحاجة إلى المال ربما هي المشكل لدفع أعداد كبيرة من التونسيين للانضمام إلى كوادر وعناصر الدولة الإسلامية، أقول ربما ولا أجزم، فهل المال نفسه هو الذي يمكن أن يدفع شباباً سعوديين لسلوك نفس سلوك التونسيين؟ أنا شخصياً لا أعتقد ذلك، فالمال السياسي الذي تدفعه المملكة العربية السعودية لمكافحة الإرهاب، وهو بمليارات الدولارات، كاف لوحده للقضاء على أي أثر للفقر في أغنى بلد عربي وهو البلد الأول في تصدير النفط إلى كل بقاع الأرض.

وعلى أية حال، فعندما نقرّر كلنا البحث عن أجوبة لهذه

الأسئلة علينا أن لا ننسى أن جلّ الذين فجروا وانتحروا في الحادي عشر من أيلول الشهيرة يحملون الجنسية السعودية ويحملون معها راية أسامة بن لادن. فهؤلاء ليس الفقر هو ما دفعهم إلى فعل ما فعلوا وإنما الإيمان بأفكار منشطرة عن السلفية بنسختها السعودية، وهؤلاء تشرّبوا الفكر السلفي في الدولة الأم ليكملوا النتيجة المنحدرة منه فوجدوها تارة عند أسامة بن لادن وتارات أخرى عند أبي بكر البغدادي الذي أتقن لعبة العزف على القيثارة السعودية، يقول أبو بكر البغدادي للملك عبد الله بن عبد العزيز: إذا كنت ملكاً فأنا «الخليفة»، وإن كنت سلفياً فأنا سلفي جهادي، وإن كنت محدّداً سلطانك بربعك، فسلطاني أنا بربيعي الذي يمتد من الربع الخالي ويصل إلى الثلاث أرباع الخاوي.

في مواجهة كل ذلك، قرأ العقلان السياسي والقانوني في المملكة العربية السعودية رسائل تنظيم الدولة الإسلامية جيداً، فكان الرد السياسي بقالبه القانوني واضحاً وبالمرصاد، حيث أصدر العاهل السعودي في أوائل شباط 2014 أمراً ملكياً جاء فيه الآتي نصه[17]:

»يعاقب بالسجن مدة لا تقل عن ثلاث سنوات، ولا تزيد على 20 سنة، كل من ارتكب، كائناً من كان، أياً من الأفعال الآتية:

- المشاركة في أعمال قتالية خارج المملكة، بأي صورة كانت، محمولة على التوصيف المشار إليه في ديباجة هذا الأمر.
- الانتماء للتيارات أو الجماعات - وما في حكمها - الدينية أو الفكرية المتطرّفة أو المصنّفة كمنظمات إرهابية داخلياً أو

إقليمياً أو دولياً، أو تأييدها أو تبنّي فكرها أو منهجها بأي صورة كانت، أو الإفصاح عن التعاطف معها بأي وسيلة كانت، أو تقديم أي من أشكال الدعم المادي أو المعنوي لها، أو التحريض على شيء من ذلك أو التشجيع عليه أو الترويج له بالقول أو الكتابة بأي طريقة.

وإذا كان مرتكب (أي المجرم) أي من الأفعال المشار إليها في هذا البند من ضباط القوات العسكرية، أو أفرادها، فتكون العقوبة السجن مدة لا تقل عن خمس سنوات، ولا تزيد عن ثلاثين سنة.

لا يخل ما ورد في البند «أولاً» من هذا الأمر بأي عقوبة مقرّرة شرعاً أو نظاماً». فماذا أراد العاهل السعودي أن يقول في هذا الأمر وهل أن هذا الأمر الملكي قادر على إزاحة مخاطر داعش عن المملكة؟

في الشق الأول من القرار، يبدو جلياً أن المملكة ينتابها توجّس من عدد المواطنين السعوديين الذين يقاتلون خارج المملكة مع التنظيمات الجهادية المتطرّفة، وهم كما ينقل الأستاذ خاشقجي يأتون بعد التونسيين في الكثرة العددية، فجاء الملك ليجرم عملية الهجرة الجهادية، أولاً لكي يعود هؤلاء المهاجرين إلى السجن عندما تنتهي مهمتهم الجهادية، ذلك أن عدم محاسبتهم على هجرتهم إنّما يعني إفساح المجال أمامهم لإكمال عملية الجهاد داخل المملكة، وثانياً وهو الأهم، أراد الملك أن يردع كل من يفكر في الهجرة للقتال مع إخوانه المجاهدين في أرض الجهاد خارج

المملكـة، فالهجـرة للقتـال في حد ذاتها تحمل فيما تحمل رسـالة إلى النظام السعودي تقول بأنه نظام غير داعم لقضايا المجاهدين، وهذا أمر خطير. لذلك نجد كيف أن تنظيم داعش يهاجم المملكة وقيادتها السياسية وكيف أن القيادتين السياسية والدينية في المملكة تهاجمـان تنظيـم الدولـة وتعتبرانه يشـكل خطراً على الإسـلام قبل المسلمين.

وفـي الشـقّ الثانـي مـن الأمـر الملكي، نجد كيـف أن الملك السـعودي يذهـب مباشـرة إلـى المنبع، فيجرم عمليـة الانضمام أو التأييـد للتنظيمـات الأصوليـة المتطرّفـة، وكان عليـه أن يفعل ذلك وعدم الاكتفاء بالشقّ التجريمي الأول، إذ من الممكن أن لا يذهب سـعوديون للقتـال فـي الخـارج مـع هـذه التنظيمات، لكـن يبقون داخل المملكة يؤيدون هذه التنظيمات ويبشّـرون بها علناً أو سـراً، أو يقومـون بتقديـم الدعـم لها، وتلك نشـاطات تشـكل على الأمن القومي للمملكة مخاطر تتجاوز عملية الهجرة للقتال.

وفي مطلق الأحوال فإنّنا في الفصل اللاحق من هذا الكتاب سنحدّد الأسباب والعوامل والدوافع التي تقود جموعاً من الشباب العربي والمسـلم إلى الانضواء تحت راية الداعشـية، متوقفين الآن عند سؤال آخر يقول: هل أن المملكة العربية السعودية هي الدولة العربية الوحيدة المستهدفة من النمط الجهادي الجديد أم أن دولاً عربية أخرى تفيد الحسابات بأن مخاوف ما تنتاب القيّمين عليها؟

انظر إلى اليمن، تلك الدولة التي رفضت دول مجلس التعاون الخليجي يوم تأسيسـه ضمّها إلى ناديهم وتلك الدولة التي تشـترك

مع العراق بمجموعة من الخصائص التي تجعل الاقتحام الداعشي إليهـا أمـر غيـر صعـب بتاتاً، وهـي الخصائص التي سـتكون محل إغراء لزعيم الدولة الإسلامية كي يبدأ التفكير فيها ربما قبل غيرها مـن دول عربيـة وخليجيـة أخـرى، ففي اليمن هنـاك ضعف لقدرة الدولـة على بسـط نفوذهـا على المناطق الحدوديـة، وهناك الفراغ السياسي والأمني الناتج عن اتساع النطاق الجغرافي للمناطق التي تسـيطر عليها بعض الميليشـيات داخل الدولة التي تشهد صراعات داخليـة، وهنـاك زيـادة لمعـدلات التوظيـف السياسـي للشـعارات الدينية، وانتشار المدّ القاعدي، بالتوازي مع ضعف الخطاب الديني الحضاري، وفي اليمن هناك تنظيم القاعدة القوي جداً والقادر على التحرك بسهولة في العديد من المناطق. ماذا نريد أن نقول بموجب هـذه المعطيـات؟ نريـد القول بأن البيعة المباغتة المتوقعة من ألوية القاعـدة فـي اليمـن «للخليفـة» الحالـي أو المتوقـع، معطوفة على خطـاب تهييجـي يلقيه أبو بكر البغـدادي أو خلفه، بوجه الحوثيين مضافاً إلى خلايا بدأ تنظيم الدولة الإسـلامية زرعها في الجغرافيا والديمغرافيـا اليمنيـة، عوامل قد تشـكّل خبراً عاجلاً هسـتيرياً يفيد بـأن داعـش فعل في اليمن نسـخة عما فعـل في العراق، وأكثر من ذلك سـيفيد حتماً أن هناك تهديداً مباشـراً للأمن القومي للمملكة العربية السعودية تحديداً بحكم الجوار الجغرافي، وتماس الحدود بين الدولتين. بالفعل ما قام به تنظيم الدولة في العراق والشام لهو تطـور مثيـر ومغـر لأي حراك ثوري جهادي فـي اليمن التي تعيش ثـلاث حقائـق هـي بالأحرى ثـلاث أنواع من الأفيـون وهي أفيون

القات وأفيون الدولة وأفيون الشعوب.

لذلك نعود ونكرّر فنقول بأن ما قام به تنظيم داعش في العراق يمثل نموذجاً واضحاً لسعي بعض الجماعات الدينية المتشددة إلى فرض سيطرتها على مناطق جغرافية بعينها عبر تطبيق الشريعة الإسلامية، وفقاً لتفسيراتها المتشددة، على نحو يجعلها مناطق خارج سيطرة الدولة. ووفق بعض التقديرات، فإن انتشار هذا النموذج في العراق يفرض تهديدات عديدة، ليس فقط بسبب انعكاساته السلبية على بنية الدولة الوطنية التي تنشأ فيها، وإنما أيضاً بسبب الأثر الانتشاري الذي قد يحدث نتيجة نجاح تجربة تأسيس إمارة ما دون تمكّن الدولة من مواجهتها.

وبديهي جداً أن نجاح النموذج العراقي، وعدم التصدي لتنظيم داعش، يحملان مخاطر أمنية عديدة على دول مجلس التعاون الخليجي، وبالتالي فإن عدم وضع حد سريع وعاجل لتنظيم داعش في العراق سيجعل التداعيات بالنسبة لدول الخليج المجاورة مفتوحة على احتمالات عديدة، قد يكون من بينها سعي هذا التنظيم إلى خلق ظهير قوي له في إحدى هذه الدول، عبر آلية التجنيد عن بعد[18].

وبالرغم من استبعاد البعض لهكذا سيناريو بالنظر إلى الإجراءات الأمنية الاحترازية والاستباقية التي اتخذتها دول المجلس أخيراً بشأن انخراط المواطنين للقتال في الخارج، أو بشأن عودة المقاتلين في الخارج، سواء من سوريا أو غيرها، فإنه يظل سيناريو قائم وغير مستبعد بشكل نهائي. فالطريقة التي سيطر

مـن خلالهـا تنظيـم داعش على ثاني كبرى المـدن العراقية، وبعدد ليـس كبيـر من القوات فـي مواجهة أضعاف هذا العدد من القوات الحكوميـة، تنبّـه إلـى ضرورة أخذ جميـع الاحتمالات الممكنة في الحسبان، وتوضح أن ثمن تجاهل احتمالات حدوث ما لا يمكن تصديقه منطقياً قد يكون هائلاً ومرعباً، فالأمر هنا يتعلق بجماعات مسلحة تتبنى نهجاً طائفياً في أكثر مناطق العالم التي عانت ويلات الطائفيـة، وهـو أمـر يحمل معه تداعيـات محتملة خطيرة على أمن دول الخليج إلى درجة لا يمكن معها تحمل تكلفة خطأ التقدير[19].

وإذا مـا دققنـا وقرأنـا بشـكل جيـد تداعيـات تنظيـم الدولـة الإسـلامية علـى الوضـع العربـي، ومـن زاوية نظر الحـكام العرب لمخاطر داعش، نجد أن الأمر يتجاوز هاجس الإطباق العسـكري على مدينة عربية هنا أو محافظة عربية هناك، فالأمر مختلف تماماً عندما يبدأ الحديث عن منطق «الخلافة»؛ إنه المنطق الذي يشـكل تهديـداً وجوديـاً للدولـة العربيـة والنظـام العربـي برمته، سـواء كنا نتحدث عن نظام قطري عربي أو نظام إقليمي عربي.

وإن الفكرة في هذا الإطار تعبّر عن نفسـها من خلال مقاربة أو مقارنة مجنونة للغاية طرحها أكثر من متخوف عربي سـواء في المخيلـة أو فـي التعبيـر، فالأزمة الراهنة في النظام الإقليمي العربي هيكليـة وربمـا وجوديـة، بمعنى يكـون النظام أو لا يكـون. النظام العربي اسـتطاع على امتداد حياته أن يتعايش مع وجود إسـرائيل، حرباً أم سـلماً. شـكلت إسـرائيل تهديداً لعقيدته وأمنه وطموحاته في التنمية والاستقلال، ولكنها لم تهدّد كل مكوناته دفعة واحدة،

ولم تمثل في أي وقت خطراً على وجوده. كان يمكن نظرياً على الأقل، أن يستمر وجود النظام الإقليمي العربي، مع استمرار الوجود الصهيوني، متوسعاً أو منكمشاً، ولكن من غير الممكن، حتى على المستوى النظري، استمرار النظام العربي بشكله وهيكله الراهن مع منظومة خلافة دينية، تنفي بوجودها الحاجة للآخر[20].

ومن جانب آخر، فمّما لا شك فيه بأن تداعيات تنظيم داعش لا تقتصر فقط على الأنظمة العربية والدولة العربية، بمعنى بنيان وعوامل قوة هذه الدولة والنظام، فالمسألة تتجاوز الأنظمة والإقليم، عندما يبدأ الحديث الشيق والقاتل في آن عن انعكاسات طائفية ومذهبية تركها ويتركها داعش في النسيج المجتمعي العربي عامة والنسيج المشكّل من تنوّعات طائفية ومذهبية بشكل أخص. لماذا نبدي مع كثيرين هكذا تخوّف؟ نبدي ذلك لأسباب عديدة أهمها أن الحراكات التي ظهرت في الوطن العربي تحت مسمّى الربيع أو الثورات العربية قد أفرزت أول ما أفرزت أو بالأحرى في الحد الأدنى عوّمت على السطح التناقضات المذهبية والطائفية، ولا نحتاج على الإطلاق لحد أدنى من دليل يؤكد هذا الطرح. غير أن هذا السبب على أهميته ليس هو السبب الذي يضاعف الخوف من منازعات وصراعات دموية عربية، فالمسألة في هذا المقام مرتبطة أولاً بأسباب نشوء الأزمة التي أبرزها داعش ولم يخلقها، فهناك شبه إجماع في التحليلات يرجع نشأة الأزمة الجارية في العراق إلى عوامل طائفية بالأساس ترتبط بسياسات التهميش والإقصاء الطائفي التي اتبعتها حكومة المالكي في العراق، وهي بيئة مثالية

تنشـأ فيهـا التيارات المتطرّفة، مثـل تنظيم داعش. ولقد ظهرت في الأسابيع أو حتى الأيام الأولى من سيطرة داعش على مناطق السنة في العراق تقارير أمنية تحذر من أن احتمالات دخول المنطقة في نـوع مـن الحـرب المذهبية تظل قائمة، بما يحمله ذلك من مخاطر فعلية على أمن دول الخليج العربية التي توجد فيها أقليات شيعية تختلف نسبتها من دولة إلى أخرى.

وما يزيد من شدة المخاوف والمخاطر من حروب ونزاعات مذهبية هو أن الجهود التي بذلت في التعامل مع الأزمة في العراق قد كرّسـت الخطر الطائفي أكثر من معالجتها للأزمة. ولقد سـمعنا وشاهدنا كيف نادى رئيس الحكومة العراقية نوري المالكي بتكوين جيش رديف من الميليشيات للدفاع عن العراق أمام تنظيم داعش، ورأينا كيف سـارعت إيران إلى إرسـال قوة من «الحرس الثوري» الإيراني لدعم المالكي، وكيف أسـهمت في تأسيس الميليشـيات الجديدة وتدريبها، وكيف بادرت إلى فتح مراكز التسجيل للمتطوعين الذين يريدون الذهاب للقتال في العراق، تحت شعار سمته «الدفاع عن المراقد الشيعية في كربلاء والنجف وبغداد وسامراء«.

الأسباب الطائفية في نشوء الأزمة، وكذلك السياسات الطائفية في معالجتها - وفق بعض التقديرات الأولية - تبدو كافية لتحريك عـدد مـن مواطنـي الدول الخليجية من الطائفتين السـنية والشـيعية للذهاب إلى العراق، تحت شعار الدفاع عن المقدسات، وهو أمر ليـس بجديـد على دول الخليج. فقد بـرزت خلال الفترة الأخيرة، بشكل لافت، قضية توجّه مواطني بعض الدول الخليجية للقتال في

سوريا، ويمكن أن يتكرر ذلك الآن مع العراق، لتتكرر أيضاً مع دول الخليج مأساة أخرى مشابهة لما حدث بعد احتلال العراق في مارس 2003، وما سمي فيما بعد بـ«العائدين من العراق»، وما يحدث حالياً في الأزمة السورية، وما يسمّى أيضاً بـ«العائدين من سوريا»[21].

وعند البعد المذهبي، دعونا نتوقف قليلاً معاً لنترك الخليج العربي ونذهب إلى لبنان الذي لربما يسمح القول بأن التداعيات المذهبية كانت بادية فيه وظاهرة بل ونافرة أكثر من المشهد الخليجي. بالطبع نقصد الحرب الضروس التي حدثت في أوائل شهر آب/ أغسطس بين مقاتلين إسلاميين، في طليعتهم داعش، وبين الجيش اللبناني، في بلدة عرسال اللبنانية المحاذية للقلمون السورية حيث المستنقع الذي غرق فيه حزب الله اللبناني بالدم الفاعل والمفعول به. في هذه الحرب «البروفا»، تجاوزت خسائر الجيش اللبناني المئة بين قتيل وجريح ومفقود وأسير، وفي هذه الحرب، عاش لبنان مع سياسييه حفلة نفاق سياسي لم يكشف عورتها سوى أهالي عرسال، الذين كانت لهم كلمة مختلفة وصلبت أصداؤها إلى المملكة العربية السعودية التي عندما فهمت ما يحدث سارعت في إرسال الرئيس سعد الحريري محمّلاً بمليار دولار، فدخل سعد الحريري وطنه بشرعية جديدة هي شرعية مكافحة الإرهاب بعدما خرج منه بلا شرعية حكومة سحبت منها الثقة وسحب معها أكثر من بساط من تحت أكثر من قدم. لكن قبل اقتحام سعد الحريري لبنان بشكل مفاجئ، كان كل ساسة

لبنان، كلهم باستثناء ثلاثة معروفين، يعيشون حالة فاحش، فالجيش اللبناني معتدى عليه من إرهابيين وأهالي عرسـال هم بيئة حاضنة للجيش والدولة وأهالي عرسال رهائن لدى الإرهابيين التكفيريين، لكن وحدهم أهالي عرسـال، لم يردّدوا ما ردّد سياسـيو لبنان من كلام يخص أهل عرسـال، فكانت عرسـال تعيش حالة عشـق مع المقولة العربية الشهيرة «أهل مكة أدرى بشعابها»، لكن أهل عرسال ولـو للحظـات أنجـزوا طلاقهـم مع مبعوث مكة، الـذي لم يدخل شـعابها وهـي التـي لطالمـا كانت له أمةً وشـعباً وظهراً وسـنداً في زمن عزّ فيه الرجال.

نحـن إذن أمـام أسـئلة وطنيـة دقيقـة وحسّاسـة نعرضها على الشكل المصر على أن يكون كالتالي:

- مـا هـو الموقف الحقيقي لأهل عرسـال مـن دخول المقاتلين من تنظيم الدولة الإسلامية وغيرها إلى بلدتهم؟
- لمـاذا رفـض أهالي بلدة اللبوة المحاذية لبلدة عرسـال دخول المسـاعدات الغذائية إلى أهل عرسـال، وما الذي دفع هؤلاء إلى سدّ الطريق ومنع مرور الحافلات المحمّلة بالإنسانيات، وهل كان سلوكهم عفوياً ناتجاً عن غيظ ما اتجاه أهل عرسال أم كان سـلوكاً مبرمجاً ومطلوبـاً مـن حـزب الله الـذي يموّن مطلق المونة على أهالي اللبوة ذات الغالبية الشـيعية كما هو معروف؟
- بعدما عادت حافلات المسـاعدات لتدخل عرسـال، ما الذي

سكن عقول أهالي عرسال فدفعهم إلى رفض المساعدات في بداية الأمر، وهل كان رفضهم مبنياً على نكاية أشبه برد صاع أرادوا فعله بوجه اللبوة أم أن الأمر يحمل أكثر من رسالة لأكثر من طرف سياسي؟

- وقبل هذا وذاك، لماذا سمح العرساليون للجماعات السورية المسلحة الانشراح والتجول في بلدتهم، وهل بالفعل سمحوا لهم أم أن العرساليين كان مغلوب على أمرهم ولا يملكون مقومات المنع والقمع؟

- لماذا كان سياسيو لبنان الرسميين وغير الرسميين، لكن الرسميين بشكل خاص، بشكل خاص يصرون يومها على ترداد عبارة أن أهالي عرسال يشكلون بيئة حاضنة للجيش اللبناني؟ ولماذا كان تركيز الإعلام اللبناني على اختلاف مشاربه وشواربه منصبّاً على الحديث عن أهل عرسال أكثر من الحديث عن مجريات العمليات العسكرية الدائرة هناك حيث الجرود الباهظة التكلفة؟

- ما هو ينبوع الحديث عن مشاركات لعناصر حزب الله في القتال إلى جانب الجيش اللبناني وهل بالفعل كان حزب الله يقصف عرسال وليس المسلحون كما تردد حينها من أفرقاء لبنانيين؟

- من أطلق قذيفة النار على وجه هيئة العلماء المسلمين الشيخ سالم الرافعي في أول اختراق له لجبهة القتال العرسالية من

أجل التفاوض مع المقاتلين مبعوثاً مفوضاً من السلطات اللبنانية المدنية والعسكرية، ولماذا أُطلق عليه النار أصلاً ولماذا كان الشيخ سالم الرافعي مصرًّا ومعانداً على إكمال مهمته رغم إصابة قدمه برصاصة الاغتيال؟

- هل أن هيئة العلماء المسلمين هي الطرف الوحيد المقبول من المقاتلين المتشددين فرفضوا مقابلة غيرها أم أنه في الأساس لم يتدخل طرف ثالث للقيام بالتفاوض الذي قامت بها الهيئة؟

- لماذا لم يكن اسم مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ الدكتور محمد رشيد قباني أو ممثلاً عنه مطروحاً مثلاً للتفاوض أو التوسّط مع المقاتلين الإسلاميين من تنظيم الدولة وجبهة النصرة، هل لأنه جهة دينية رسمية في الدولة اللبنانية أم للأمر أسباب أخرى، لا أعرفها؟

لكن وقبل كل هذه الأسئلة فالسؤال الأكثر من مهم يقول: ماذا كان يقصد القيادي في حزب الله محمد يزبك حينما قال بأن عرسال أسيرة الدولارات؟ وهل بالفعل إن عرسال هي أسيرة الدولارات أم أسيرة لشيء آخر أراد العضو في شورى حزب الله الشيخ محمد يزبك دعشنته؟

الفصل السادس

داعش بين التطرّف الشيعي والتصرف السنّي

في إطار البحث التأصيلي في ولادة تنظيم داعش، ونقصد إطار دوافع التأسيس والأهداف السياسية، يوجد فريق واسع من المراقبين والمحللين والباحثين ورجال السياسة يعتبر أن داعش، ذلك الهيكل السني الجهادي المتطرّف، ما هو إلاّ الرد الطبيعي لداعش الشيعي المتمثّل بالسياسات والممارسات الإيرانية بأجنحتها العربية وعلى رأسها حزب الله اللبناني، ففائض القوة لدى المركز والأطراف الشيعية وتماديهم في الاستقواء بكل أنماطه وأشكاله ولّد ردة فعل معاكسة، تمثّل بعدها الاستراتيجي في وجود داعش وتمثّل بُعدها العنفيُ بفائض قوة مواز أنزله داعش إلى الميدان، في الميادين التي كانت تعتبر حتى ما قبل ولادة داعش مساحات محجوزة للعنجهية الإيرانية وتوابعها.

وتكرّست هذه الأقاويل والتحليلات على أرض الواقع في معركة عرسال الشهيرة في صيف 2014، ففي هذه المعركة أنفق ساسة لبنان وعسكريوه كل ما أعطاهم الله من طلاقة في التعبير، ليتحدثوا خطاباً واحداً قلّ نظيره؛ إنه الخطاب الذي يقول بأن

أهالي عرسـال يشـكلون حضناً قوياً للجيش والدولة، وكأنّما هناك رجلاً ما، أكثر من السؤال عليهم: من قال لكم يا سادة أن عرسال وأهل عرسـال ليسـوا حضناً للجيش والدولة، بالرغم من أن أحداً لم يسألهم هكذا سؤال.

لكن صوتاً ما يومها خرج عن هذا الإجماع الرسمي اللبناني، فأبرز قياديي حزب الله الشـيخ محمد يزبك، قال يومها معقّباً على لغز عرسال، بأن عرسـال أسـيرة الدولارات. ويومها مرّ كلام هذا الرجـل مـرور الكـرام، وكأنّما هناك تعميم في لبنان بعدم الرد على هذا الكلام أو حتى مناقشته أو حتى الإشارة إليه.

لكـن مـاذا أراد الشيخ يزبـك أن يقـول، ولماذا قـال ما قال؟ ذلك هو السؤال المزدوج الذي عتّم على كلام هذا الرجل، وذلك هو السـؤال الذي اعترضه وزير العدل اللبناني اللواء اشـرف ريفي الـذي قـال حرفيـاً: «الحـل في عرسـال لا يكون عسـكرياً ولا أمنياً بل بالسياسة ويجب إبعاد حمم البركان المحيط بنا وحماية عيشنا المشـترك في البقاع الشـمالي». نحن بذلك أمام خطابين مختلفين، بل متناقضين، خطاب للشيخ يزبك وخطاب للوزير ريفي.

مـا أراد العضـو فـي شـورى حزب الله محمـد يزبك قوله هو أن عرسـال منطقة محرومة وأهلها فقراء، وبالتالي فهم لا يتمتعون بمقومات الحصانة التي تقيهم شرّ تسلل التطرّف والإرهاب إليهم، لا بـل إن وضعهـم الاجتماعـي والاقتصـادي المهتـرئ والمذري، يجعلهم لقمة سائغة للإرهابيين والمتطرّفين.

في منطق الإرهاب هذا ما أراد الشـيخ يزبك أن يقوله، لكن

الـذي أراد قولـه هـذا الرجل أيضاً، وهو الأكثر تعبيراً وخطورة، هو أنّ أهالي منطقة عرسال شكلوا حضناً مقبولاً بحث المتطرّفون عنه فوجدوه، وهو منطق يناقض كل المنطق السياسي الرسمي اللبناني، مـع الفـارق فـي الحيثيات التي انطلق منها ساسـة لبنان الرسـميين واختلافها عن الحيثيات التي شكلت منطلقاً للشيخ يزبك.

فحسـابات أو حيثيات قادة الدولة اللبنانية مبنية على ضرورة عدم نبش القبور التي تستلزم حقن رجالات عرسال بجرعات وطنية موجودة عندهم أصلاً، وربما يمكن القول بكمية أكثر من الكثير من ساسة لبنان. في حين أن حسابات وحيثيات ما يمثل الشيخ محمد يزبـك مبنيـة علـى ومنطلقـة مـن تخوفات تصل إلـى درجة الرعب والهستيريا التي تستوجب الاستخدام المتلازم للترغيب والترهيب، وكأني بالشـيخ يزبك يريد القول لأهل عرسـال، نحن في الحزب نـدرك خطـوط الطـول والعـرض عندكم، والأسـود المتمترسـة في وديانكم تدرك عرينها لبوتنا المترصدة.

في نفس السياق، جاء اللواء اشرف ريفي ليقول، إن المسألة ليست مسألة دولارات على الإطلاق، بل هي مسألة مشكل سياسي له أبعاده وحيثياته، وهذا المشـكل السياسـي يدركه حزب الله لأنه المساهم الأول في شركة صنعه وتأسيسه.

وفي منطق الإرهاب، يجمع الباحثون والدارسون في ظاهرتي التطـرّف والإرهـاب أن كلام اللـواء ريفـي هـو الأقـرب للصـواب والمنطـق، وذلك بشـهادة تقارير وأبحـاث وقرارات الأمم المتحدة بجهازيهـا الرئيسـين، الجمعيـة العامة ومجلس الأمـن، والتي تضع

العوامـل السياسـية فـي المرتبـة الأولى عند الحديـث عن الظروف المؤديـة إلـى انتشـار ظاهـرة الإرهـاب، كمـا إن السـياق التاريخي للإرهـاب يحدثنـا عـن مشـاكل سياسـية كانـت المشـكّل الرئيـس لاعتماد الإرهاب وانتهاجه. لكن ماذا يعني كل ذلك وفق المنظور السياسي؟

إن ذلـك يعنـي بأن أهالي عرسـال البلدة المتكئة على الكتف السـوري ديمغرافياً وجغرافياً المؤيدين للثورة السـورية، وجدوا في سلوكيات حزب الله العسكرية إلى جانب النظام في سوريا استفزازاً وقهراً سياسياً لهم ولما يعتنقونه من أفكار سياسية، فقرأتهم أطياف سـورية جهاديـة عابـرة للحـدود قـراءة علمية كتبـت حروفها الأمم المتحدة، فلعبوا مع حزب الله نفس اللعبة التي لعبها في سوريا.

وبالفعـل كانـت اللعبة قاسـية علـى الطرفيـن، لأن الاختلاف المذهبي لعب دور الحامل لميزان التطرّف في الإرادة هذه المرة، فحصـل مـا حصـل، والخوف الكارثة مما سـيحصل مسـتقبلاً، في المستقبل القريب قبل البعيد، وإنه الخوف الذي أضاف في خطاب أمين عام حزب الله عبارة جديدة لم يستعملها حتى في عزّ حربه مع العدو الإسـرائيلي، فنصر الله المتهيب من منطق السـلفية الجهادية بثوبها الداعشي الجديد، وصف مخاطرها على لبنان بعبارة «الخطر الوجودي»، وهي العبارة التي لم يسـتخدم مثلها أو أقسـى منها في كل الحروب مع جيش العدو الإسرائيلي.

بالطبع، المسألة ليست مقتصرة على عرسال بأبعادها السياسية والمذهبية والاسـتراتيجية إن أردتم، فهي لا تتجاوز أن تكون أحد

أبرز تعبيرات مشهد التطرّف والتطرّف المضاد، فالمشكلة لم تبدأ بعرسال كي تنتهي بها، فالأمور تبدأ من مكان آخر.

وحتى هذه السطور، فإن كل ما تقدم في هذا الفصل لا يتعلق برأي أُريد أن أقدّمه للقارئ، فكل ما فعلته ما هو إلاّ مجرد عرض لما حدث في ضوء تفسيرات وتقديرات علم الإرهاب وقوى الجذب التي يدركها المشتغلون في حقول الظاهرة دراسة وبحثاً وتحليلاً، لذلك سأكمل ذلك العرض، موسّعاً السؤال الذي كنت قد طرحته في بداية هذا الفصل:

هل أن تنظيم داعش المتطرّف لأقصى حدود التطرّف هو فعل بحد ذاته، أم ردّة فعل تحمل طابع التطرّف على فعل التطرّف الشيعي الحاصل؟

وفي الإجابة، فإنه يتنازع هذا السؤال ثلاثة آراء مختلفة، وتباينها أوسع من تقاربها، فما هي هذه الآراء؟

أمّا الرأي الأول، فيرفض أي خلفية سياسية لنشأة تنظيم الدولة الإسلامية ويحصر الموضوع في إطاره الديني، حيث يعتبر أصحاب هذا الرأي أنّ داعش يستند إلى أسس عقائدية وطائفية سنية، تسعى إلى مواجهة المؤسّسات والتنظيمات الشيعية في العراق وسوريا وقريباً في دول عربية محيطة، وهو امتداد لصراع تاريخي ما بين الحسين بن علي بن أبي طالب ويزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي أطاح الحسين في معركة كربلاء وأسفر ذلك عن تقديس الشيعة ضريح الحسين في كربلاء والذي اعتبروه سيّد الشهداء وناصر المظلومين، وهذه المعركة كما يقول صاحب هذا الرأي لم تنته

حتى يومنا هذا وما تزال تبعاتها تتضاعف وتتفاعل ويتم استغلالها لتأجيج الصراع الطائفي بين الشيعة والسنة[22].

وفي مقابل هذا الرأي، يوجد رأي آخر يرفض حصر الموضوع بالمقاربة الدينية البحتة، فبالرغم من تشديده على العامل الديني أو الطائفي إلا أنّه لا ينكر البعد السياسي في الموضوع، لكن يظل الباعث الديني هو الأساس، فنحن أمام رأي يغلّب العامل الديني الطائفي على العامل السياسي. فالقائلون بهذا الرأي ينطلقون من فكرة لا يزيحون عنها وهي أن التطرّف الشيعي أنتج تطرّفاً سنياً، لا العكس، ويقدمون في سبيل إبراز وجهة نظرهم الفكرية مجموعة من الدلائل والبراهين[23]:

- ينطلق أهل هذا الرأي بالقول أنه منذ اليوم الأول لبروز ظاهرة آية الله الخميني «المتطرّفة» في أواخر سبعينيات القرن الماضي وحربه على العراق تولّدت ردود فعل سنّية، ولا شك في أن بعضها جارى التطرّف الشيعي بتطرّف سنّي مماثل. وبعد غزو العراق للكويت وسقوط نظام صدّام حسين فرض النظام الشيعي الإيراني مباشرة وعبر أدواته في حكم العراق ظلماً واضطهاداً بحق أهل السنة العراقيين وكذلك بحق الشيعة العرب في العراق.

- ويتابع أهل هذا الرأي فيعتبرون أنه بعد تثبيت ثورة الخميني أقدامها في العراق بسنوات قليلة، تمّ تأسيس حزب الله في عام 1982 على قاعدة مذهبية، وكأنه ليس في جنوب لبنان غير الشيعة، بينما هو أرض انفتاح وتعايش بين الشيعة والسنّة

والمسـيحيين والدروز، فحُصِر السـلاح المقاوم في يد الشيعة بينما كانت المقاومة الوطنية تضم الشيعي والسنّي والمسيحي والدرزي على حد سواء.

وفي هذا السياق حصرت إيران مساعداتها في لبنان بالشيعة، بينما كانت المملكة العربية السـعودية مثلاً تعمّم مسـاعداتها على اللبنانيين عموماً من الجنوب إلى الشمال ومن العاصمة إلى البقاع.

ويسـتنتج أصحاب هذا الرأي بأنه قد تبين أن وراء ذلك كله مخططـا إيرانيـاً للسـيطرة عبّـر عنهـا الإيرانيـون مؤخـراً بقولهـم أن إيـران صـارت علـى المتوسـط، وأنها صارت على حدود إسـرائيل في جنوب لبنان.

- ويتوصـل القائلـون بهـذه النظريـة أو وجهـة النظـر، لا فـرق، إلـى نتيجـة تقول أنه يجـب القول للإيرانييـن وأتباعهم: «أنتم متطرّفون وداعش وأقاربه متطرّفون، مع فارق أن تطرّفكم أنتج تطرّفهم وليس العكس».

وأمّـا رواد النظريـة الثالثـة، فيرفضـون تغليب البعـد الديني - الطائفـي علـى الموضوع، ويعتبرون أن المشـكلة في الأسـاس هي مشكلة سياسية بصبغة دينية، فالعامل السياسي هو العامل الأساس، بمعنى أن التطرّف السـنّي ممثَّلاً بداعش كان نتيجة لفعل سياسـي إيراني شيعي قد حصل.

وهم بذلك يعتبرون أن ما حصل في العراق من غزو خارجي لتنظيـم إجرامـي خـارج علـى القانون، وجد في الفـراغ الأمني في

شمال وغرب العراق وشرق سوريا بيئة مناسبة للتمدد والنمو، كما هي طبيعة كل التنظيمات غير الشرعية، وترافق ذلك مع غضبة سنّية في بعض أقاليم العراق على الحكومة الاتحادية التي وضعت علمانيتها على الرفّ ولبست العمامة الشيعية، فاختلطت الغايات والأهداف غير المعلنة لداعش، الذي هو على باطل مع الغايات والأهداف المعلنة للسنّي العراقي الذي هو على حق، وبدا هذا التزاوج المؤقت لبعض العراقيين والراصدين حرباً سنية شيعية ضد المكوّن الشيعي العراقي، لكنّها ليست بحرب دينية.

ويتوصل أهل هذا الرأي إلى نتيجة تقول بأن الوجود الداعشي المدعوم بجيوب سنية سيستمر ما لم تتحقق لاءات ثلاث[24]:

- الـ «لا» الأولى متمثلة بإنهاء حكم المالكي وحكومته وتشكيل حكومة توافق وطني تعيد للسنّة اعتبارهم واعتباراتهم.
- الـ «لا» الثانية متمثلة بإنهاء الوجود الإيراني في العراق، فمثل هكذا إنهاء سيطمئن السعودية وتركيا بشكل خاص، فيبعدهما بالتالي عن التدخل المضاد في الشأن العراقي.
- الـ «لا» الثالثة تتمثل بعدم التدخل الأميركي في العراق بأي صورة من صور التدخّل المعروف.

وكما هو واضح من هذه الآراء الثلاثة، فإنه ليست هناك وجهة نظر واحدة متّفق بشأنها أو عليها بين الراصدين لظاهرة داعش في بعدها التطرّفي، والفرق بين تغليب البعد الطائفي على البعد السياسي أو العكس هو فرق كبير يصل إلى حد التناقض

وليس بالفرق البسيط، إنه الفرق الناتج عن الاختلاف في القراءة لهذا التنظيم وهو أمر معروف، سيّما أن الثابت في داعش أمران فقط: فائض قوّة العنف الإرهابي لديه والاختلاف بشأن ماهيته، أمّا الأمور الأخرى حولها فهي أمور بسيطة تدخل في التفاصيل لا أكثر.

وقبل أن نعطي رأينا في موضوع المنحى التطرّفي لتنظيم الدولة الإسلامية، بعد أن عرضنا هذه الآراء الثلاث الملتقية قليلاً والمتباعدة كثيراً، دعونا نعيد التذكير بأننا لا نناقش المسألة ببعدها الاستراتيجي، بمعنى من يقف وراء داعش لتحقيق أهدافه الاستراتيجية، وإنما نناقشها كحالة من حالات التطرّف الديني قائمة بذاتها وفق سياقها الخاص الذي اختاره لنفسه وبعيداً عن أي اعتبارات أخرى.

وإني إذ أصر على هذا التمييز، أي التمييز بين تنظيم الدولة الإسلامية كحالة قائمة بذاتها بنت نفسها بنفسها وبين العمق الاستراتيجي الذي تنهض عليها أي صلتها بدول أخرى، فإن مصدر إصرارنا متمثّل في فرضية نجافي الموضوعية البحثية إن استبعدناها، ونقصد الفرضية القائلة بأن تنظيم الدولة الإسلامية هو تنظيم قائم بذاته لا يتبع لأي طرف إقليمي أو دولي، ولد ونشأ بحكم ظروف إقليمية ودولية قائمة، فتنادى جمع من الجموع إلى المبادرة بفعل معيّن انطلاقاً من سند ديني أعطاه تفسيراً يليق بحركته، يليق؟ أقصد تتطلبها حركته، ونجح في تجييش أناس حوله، ورويداً رويداً وبحكم دهاء وذكاء وقراءات صحيحة قام بها المتنادون، أضحى

التنظيم على الصورة التي بات عليها والتي بات الجميع، جميع من في الكون يعرفها كما يعرف اسمه، إنه تنظيم الدولة الإسلامية.

وبغض النظر عن كل ما نسمع ونقرأ ونشاهد في الإعلام والسياسة من كذب وتحليل وجهل إن أردتم، دعونا نناقش حال داعش كتنظيم عنفي وفق منطق العلم أولاً والإرهاب ثانياً والدين ثالثاً وقليلاً.

أولاً، لا يمكن أن يختلفنّ اثنان على أن تنظيم الدولة الإسلامية هو تنظيم يمارس الإرهاب بأعلى درجاته العنفية والاحترافية، فهو لا يمارس العنف فحسب، وإنما العنف الإرهابي، فالفرق بين العنف والإرهاب بعيد بعد السماء عن الأرض، فلقد استقرّ العلم على القول بأنّ لا إرهاب دون عنف، لكن العكس ليس بصحيح على الإطلاق، بمعنى أننا يمكن أن نكون أمام حالة من العنف دون أن تلازمها حالة إرهاب.

هذا التمييز بين العنف والإرهاب هو أمر مهم عندما نريد أن نحدد مرتكزات داعش وأساليبه وتقنياته، لا بل ومراداته من الإرهاب.

وإن أولى أهمية من أهميات هذا التفريق بين العنف والإرهاب هو البعد السياسي للموضوع، فبذلك يمكن أن نكون أمام جريمة سياسية دون أن تكون هذه الجريمة إرهابية، فليس كل جريمة سياسية هي جريمة إرهابية بالضرورة.

وإننا إذ أقحمنا البعد السياسي في إنجاز التفريق فذلك يعود إلى أن الإرهاب ينهض على السياسة، فإذا لم يكن الإرهاب منطلقاً

من بواعث سياسية وقاصداً تحقيق أهداف سياسية بعيدة أو متوسطة الأجل، فلا يمكن أن يكون إرهاباً.

نقول ذلك لأن الجرائم الدينية مهما كانت قسوتها ووحشيتها وبشاعتها، إذا لم تكن قائمة ومرتكزة على عناصر سياسية، فهي لا يمكن أن تكون جرائم إرهابية، إذ يمكنك أن تسمّيها جرائم بغض وكراهية وحقد ورفض للآخر أو حتى تنفيذاً لنصوص دينية، شربت كأس خمر فسكرت ثم فسّرت كما يحلو لك.

إذن لنسجّل معاً بأن تنظيم الدولة الإسلامية لا يرتكب جرائم دينية بحتة صافية، وذلك ليس لأن قادته وقواته لا يحتسون الخمر، وإنما لأنه يعلن بشكل واضح وصريح عن أهدافه الدينية، التي تبدأ بالتسمية ولا تنتهي بالخريطة الجغرافية التي رسمها لنفسه وأبلغ العالم بها.

ومن هنا يمكن أن يطمئن المسيحيون، ليس في العراق وحسب، وإنما في كل بقاع الأرض، بأن داعش لا يستهدفهم للاختلاف في الديانة، على اعتبار أنهم كفار وفق ما يعتقد، فهو ليس بمجرم ديني، بدليل أنه لم يقم بتصفية المسيحيين في الموصل وإنما وضعهم بين خيارات ثلاث، وبدليل آخر يقول إن العديد من المراقبين بدأ يغيّر رأيه في داعش ويتحدث عن براغماتية لم تعرفها التنظيمات الجهادية في حياتها، ولقد سلّطنا الضوء على ذلك في فصول سابقة من الكتاب.

فمع داعش عليك أن تعرف وتعلم وتدرك أن كل جرم أو عمل إرهابي يرتكبه إنما يرتكبه لتيقّنه أن هناك قطافاً سياسياً

مـن ورائـه، فيعـدل عن ارتكابه إن وجد أن السـلة فارغة. ولقد بتنا متأكديـن أن العقـول التي تخطط وتسـترتج لداعش أهم من عقول الكثير من مفكري أكثر الدول الغربية تقدماً وقوة.

ثانيـاً، إشـكالية التطـرّف والإرهـاب، ذات المصطلحيـن المختلفيـن، حيـث لا يعتبران علـى الأقل واحداً أو مفيدين لمعنى واحد، فالتطرّف شـيء والإرهاب شـيء آخر تماماً. فتارة يقال إن داعـش هـو تنظيـم متطـرّف وتارة يقال إنه تنظيـم إرهابي، فإلى أي حـدّ هـذا القـول أو ذاك هـو صحيح، وأين يمكـن أن نضع داعش وفق منطق التطرّف ومنطق الإرهاب؟

يحتـاج الأمـر بدايـة للتمييـز بين التطـرّف والإرهاب، فهل أن التطرّف هو إرهاب وهل أن الإرهاب هو تطرّف، وما معايير التمييز بين التطرّف والإرهاب؟

عندما نتحدث عن التطرّف، فهذا يعني أننا نتحدث عن فكر، فنقـول بـأن فلانـاً يملـك فكراً أو لديـه فكراً متطرّفـاً يرفض الآخر ويعتبـر أن الحقيقـة لـه ومعـه فقط، أما الآخر فأيـاً يكن هذا الآخر هو على خطأ، بمعنى أننا أمام مغالاة في الإدعاء، لذلك فالمعاجم اللغويـة التـي وضعـت تعريفاً للتطرّف، نجدهـا تعبّر عنه بالقول إنه الغلو أو المغالاة السياسـية أو المذهبية أو الفكرية، وهو أسـلوب خطيـر مدمّـر للفـرد والجماعـة. وهذا يعني أن التطـرّف الديني هو أحـد أشـكال التطـرّف الـذي يمكن أن يكون سياسـياً أو مذهبياً أو عرقياً أو قومياً.

يبـدو واضحـاً إذن أن التطـرّف هو حالـة فكرية، هو بالأحرى

وضعية فكرية، نعيشـها كل يوم دون أن نشـعر، نعيشـها مع رجال دين، أقـول رجال ديـن ولا أقول رجال الدين، ففي صلاة الجمعة لطالمـا نـردّد مـع الإمام عندمـا ينهي خطابه الديني ويبـدأ بأدعيته، نـردد «آميـن» علـى أدعيـة يطلـب فيها مـن الله أن يهلـك الكافرين والمشـركين، يطلب فيها أن يخسـف الأرض بالكفار، لكنه يطلب للمسلمين الرحمة والغفران والهداية والرحمة، وفي إحدى المرات كنت أصلي صلاة جمعة في مسـجد طرابلسـي، وكنت أردد كلمة «آمين»، لكن عندما سمعت الشيخ يقول «اللهم أهلك إيران الشيعية وروسـيا الشـيوعية»، لـم أقـل آميـن، إذ قلت في نفسـي كيف أريد من الله أن يهلك روسيا الشيوعية وهي القادرة الوحيدة اليوم على إحداث توازن مع الولايات المتحدة التي تحتل أرضي في العراق وتقتل إخوتي في العراق وتدمّر حضارتنا الإسلامية في أعرق بلاد ما بين النهرين.

يبـدو واضحـاً أكثـر أن التطـرّف إنمـا هـو نزعة موجـودة فينا باللاوعـي وهـذا أمـر أكثـر مـن طبيعـي، فالمنطق الدينـي هو بحد ذاتـه منطـق إقصائي وإلغائـي، والأكثر خطورة هو المنطق المذهبي التعصبـي، وعمليـة الدعـاء أو الأدعية التي يطلقها «رجال دين» هي التطـرّف بعينـه فـي حالات كثيـرة، ونحن نردّد «آميـن»، لأننا نفتقد عناصر القوة التي تحوّل التلبية إلى أرض الواقع، لكن من يمتلك هـذه القـوة يذهـب مباشـرة إلـى تنفيـذ مـا يضمـر وما يعتقـد. إنها تلـك الحالـة النفسـية التي تقودنا إلى الاسـتعانة بـالله للقضاء ليس علـى عدونـا، وإنمـا علـى مـن نظنه عدونا، إلى ذلـك الذي نكرهه

لاختلافه عنّا في المعتقد والمذهب والدين، ويكون كاذباً من ينكر ذلك. وإن هذا الأمر موجود في وعند كل المنتمين إلى الأديان، وليس بخاصية إسلامية على الإطلاق، فالأوروبيون عندما كانوا أقوياء قبل قرون، وعندما كانت الكنيسة تشتغل في خدمة بلاط الملوك الأوروبيين، كانت الداعشية المسيحية حينها تفوق الداعشية الإسلامية اليوم، ومحاكم التفتيش الأوروبية أقل دليل على ذلك، دون أن يعني ذلك على الإطلاق أن هؤلاء كانوا ينفّذون أوامر الدين المسيحي وتعاليمه، فالفرق بين الكنيسة في ذلك الوقت وبين المستثمرين لهيبة الكنيسة أو المسيطرين عليها كالفرق بين الإسلام والكثير من المسلمين.

لأجل ذلك كله، وانطلاقا من ذلك، جئنا نحن رجال القانون في محاولة للحد من مخاطر التطرّف، لنقول بأن التطرّف لا يعني الإرهاب أبداً، فالتطرّف يرتبط بالفكر بينما الإرهاب يرتبط بالفعل. التطرّف يرتبط بمعتقدات وأفكار بعيدة عمّا هو معتاد ومتعارف عليه سياسياً واجتماعياً دون أن ترتبط تلك المعتقدات والأفكار بسلوكيات مادية عنفية في مواجهة المجتمع والدولة. أما إذا ارتبط التطرّف بالعنف المادي فإنّه يتحول بذلك إلى إرهاب. فالتطرّف دائماً في دائرة الفكر أمّا حينما يتحول الفكر المتطرّف إلى أنماط عنفية من السلوك فهو عندئذ يتحول إلى إرهاب. لذلك عندما نبحث بعمق في فلسفة القانون، خصوصاً الجزائي منه، نجد أن هذا القانون لا يعاقب على الفكر، على ما يدور في ذهن الإنسان، لأنه ليس بجريمة، فعملية التجريم تبدأ عندما يتحول الفكر إلى تنفيذ

على أرض الواقع[25]. وهذا أمر يتطلبه ويفرضه مبدأ لا جريمة ولا عقوبة بدون نص، لأننا لو تخيلنا أن التفكير معاقب عليه قانوناً، لكانت النتيجة أن هذا المبدأ قد فقد كل قيمته، وكيف يفقدها وهو ضمان مخاطر وأخطاء القوانين الجزائية.

حتى الآن نحن متفقون على أن التطرّف هو حالة فكرية، وبأن الإرهاب هو حالة عنفية مادية وبأن المصطلحين لا يفيدان نفس المعنى، إذ يمكن أن أكون متطرّفاً دون أن أكون إرهابياً، وذلك عندما أحمل أفكاراً متطرّفة لكني لا أرمي بنتائجها على أرض الواقع، وإنما أحتفظ فيها كرأي أو عقيدة أعتنقها.

هذا يعني أن هناك مساحة تفصل التطرّف عن الإرهاب، وما يلغي هذه المساحة هو السؤال التالي: ما الذي يجعل الإنسان ينفّذ تطرّفه إلى إرهاب؟ وهل أن الإرهاب هو النتيجة التلقائية الوحيدة لوضع التطرّف موضوع التطبيق؟ هذا هو السؤال الانعطافي والحاسم والواجب الإجابة عنه.

في منزلق الإجابة عن هذا السؤال المزدوج، يجب القول بضرورة تصحيح الخطأ الذي يقع فيه كثيرون، والدارسون لظاهرة الإرهاب بشكل خاص، وهي الحالة التي يتحول فيها التطرّف إلى الإرهاب، فهناك شبه إجماع، على أن تنفيذ المتطرّف لتطرّفه يؤدي إلى سقوطه في مستنقع الإرهاب أو أن التوصيف لفعله الجرمي في هذه الحالة هو التوصيف الإرهابي، وهذه مغالطة كبرى. وإذا ما أردنا توضيحها نعرض مثالاً بسيطاً: لنفترض أن سنياً أو شيعياً أو مسيحياً أو عابداً للشيطان، لا تهمّه السياسة ولا يهمه من يحكمه

ولا حتى من يحكم العالم، لنفترض أن هكذا إنسان يعتبر أن كل من يعتقد معتقداً غير معتقده هو كافر ويجب قتله، وبالفعل قام هذا الإنسان وقتل إنساناً أو اثنين أو ثلاثة مختلفين عنه دينياً؟ فماذا نسمي جرمه في هذه الحالة؟ هل يمكن القول عنه أنه إرهابي؟

الجواب حتماً لا، فهو ليس بإرهابي، إنه مجرم ارتكب جريمة أو جرائم دينية، جريمة أو جرائم كراهية، جريمة إنسانية، سمّها ما شئت، لكنها ليست بجريمة إرهابية؟ لكن ما الذي يجعل جريمته إرهابية؟ الذي يجعلها إرهابية هو البعد السياسي لها، أي أن يقتل هؤلاء لبواعث سياسية أو لأهداف سياسية. لأنه في هذه الحالة، يكون حاملاً لفكر ديني متطرّف، ويريد في الوقت عينه أن يجعل هذا الفكر الديني الذي يحمله هو الفكر الممسك بالسلطتين الدينية والسياسية، فهو مثلاً يريد أن يبني دولة إسلامية يطبق فيها الأفكار والمعتقدات التي يؤمن بها، ويريد في الوقت عينه أن يبعد الذي يحمل أفكاراً أخرى وهي أفكار ومعتقدات مناقضة لما يحمله، أن يبعده من الوصول إلى السلطة أو التشارك معه فيها أو تهديده لسلطته. وهذا الإنسان لو كان يحمل أفكاراً مسيحية متطرّفة ينطبق عليه نفس القول والحكم وقد حصل ذلك في التاريخ الإنساني وأشرنا إليه.

ماذا يعني ذلك؟ إن ذلك يعني أول ما يعني، أن التطرّف يكون في ذروة خطورته عندما يرتدي ثوبه السياسي، أمّا بقاءه في إطاره الديني، فلا نقول أنه لا ينتج مخاطر، فهو ينتج دون أدنى شك، لكنّها ليست بالمخاطر الكارثية، بل إنها المخاطر التي يمكن

تطويقها والسيطرة عليها من خلال السيطرة على المتطرّف.

هنا علينا تصحيح مغالطة أخرى كبرى وقع فيها الكثيرون أيضاً، وهي الخلط بين الأسباب المؤدية إلى التطرّف والأسباب المؤدية إلى الإرهاب، فعندما نقرأ لكاتب أو باحث ورقة يتحدث فيها عن أسباب التطرّف نراه يستطرد ويقول بأن للتطرّف أسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية و.. من يمكن أن يصدق ذلك الكلام؟ إنه الجهل بعينه، أولاً لأننا بذلك نعطي المتطرّف مبررات لتطرّفه، وثانياً لأننا نفرغ خطورة التطرّف من مضامينها.

للتطرّف سببان لا ثالث لهما: إمّا الجهل المطبق بالدين، وإمّا الكراهية للآخر الذي يحمل معتقداً آخر. التطرّف ليس له أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية على الإطلاق. الإرهاب هو من يتزود بهكذا أسباب. التطرّف هو بكل بساطة تفسير أحادي للبنود الدينية، هو اجتهاد متطرّف لكلام الله الذي لا يمكن أن يدعو إلى إلغاء عبده الثاني. يقول الله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. لا يمكن أن نجد كلاماً أوضح من هذا الكلام، فالله عز وجل يقول بأن هناك من يكفر به مثلما هناك من يؤمن به، لكنه لا يقول اقتلوا الكافر، بل يقول له دينه وللمؤمن دينه، وهو سيحاسب من كفر به يوم القيامة. لكن المتطرّفين رفضوا هذا المنطق وخرجوا عن كلام الله وأوامره فقرروا قتل الكافر قبل حتى من أن يتأكدوا من كفره. وهو نفس الأمر الذي يفعله الصهاينة مع أهل فلسطين، فالحاخام الإسرائيلي المقيم في الثكنة العسكرية الإسرائيلية يتلو على الجنود صباح مساء

بنود الإجرام والكراهية ومشروعية القتل. هل نريد أن نكون مثلهم ونحن أولى ضحاياهم؟ هل نريد أن نمنحهم مشروعية عندما نفعل أفعالهم ونقول أقوالهم؟ التطرّف أيها السادة هو المنطق الضمني لعبارة «شعب الله المختار»، والنقيض العلني لـ«كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»..

ماذا يعني كل ما تقدّم؟

إن كل ما تقدّم في هذا الفصل إنما يعني أو يفسّر الخلاصة التي يجب أن نتوصل إليها، وهي أنه بالتمييز بين التطرّف والإرهاب، ندرك كيف يمكن معالجة الإرهاب لا التطرّف. لماذا نقول ذلك؟ نقول ذلك، لأن التنظيمات الإرهابية القائمة على نهج التطرّف هي في حقيقتها مقسمة إلى قسمين، إن عالجنا قسماً من القسمين تلغي هذه التنظيمات نفسها بنفسها.

تلك التنظيمات وعلى رأسها داعش، تتشكل من القيادة وهي القسم الأول ومن العناصر العسكرية وهي القسم الثاني.

أما القضاء على القسم الأول فهو صعب ومحيّر، لأنه يرتبط إما بمشاريع إقليمية أو دولية، وإما مرتبط بغريزة حب الأمر والحكم والسلطة. أما القسم الثاني وهم المجاميع التي تعمل على تحقيق أهداف القسم الأول، فهي مجاميع مسكينة، هي من إفرازات المجتمع، الأوضاع والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية زرعت فيها اليأس والإحباط والانتقام فقررت قتل الإنسان بداخلها والمشي وراء الشر والموت. هذه المجاميع قد لا تكون فاقهة لأمر في الدين، قد لا تكون متدينة أصلاً، هي

مجاميـع تائهـة مشـردة فقدت كل آدميتهـا، فوجدت أن هناك مكاناً مـا، تحقّـق فيـه أمران: الأول الخلاص من الحيـاة بالموت والثاني الثأر لقضية ذاتية تختلف من شخص إلى آخر، فلا عجب إن وجدنا في داعش مثلاً من انضم إليه لينتقم من شـخص أو خط أو نظام قتل حبيبته التي أحبها حبًّا جمًّا. ولا عجب إن وجدنا في صفوف داعش سـكيراً كان مولعاً بأمه لكنها قتلت في حرب لا شـأن لهما بها. ولا عجب ولا عجب.. داعش بذلك هو شـركة التأمين التي تسد مخاطر الحوادث، كل الحوادث. إن كل هؤلاء غير متطرّفين، لأنهـم غيـر متدينيـن أصلاً، وقد يكونون علمانيين أو شـيوعيين في الثقافة ما قبل التدعشن.

وأمـا القسـم الثانـي، وهو قسـم القيـادة والقـرار، فهو الثعلب الـذي علّـم كيـف تذبـح الكتف، وله ثـأر أيضاً مع جماعـة ما، أياً تكـن هـذه الجماعـة، وقد يكون متديّناً وقـد لا يكون، لكن التديّن أضحـى أسـهل أمـر، فيكفـي أن ترتدي عباءة الديـن وتترك لحيتك تطـول وتضـع العمامـة ذات الرمـز الموحي، وتخطـب في الجمع فيأتونك من كل حدب وصوب. هذا القسم هو الخطر، فهو قارئ جيد للسياسة وعالم بمكامن التناقضات، فيعلم من يقف معه ومن يقف ضده.

وهكـذا تبـدأ الحكايـة، حكاية داعش الإسـلامية وغداً حكاية داعـش المسـيحية ودومـاً حكايـة داعـش اليهوديـة، ومعهـا داعش السيخية والبورمية.. فهل نسيناهما؟

لذلـك كلـه، وانطلاقـا من ذلك كله، ليس بالضرورة أن يكون

ناقماً قد وقف وراء داعش، ليس بالضرورة أن يأخذنا منطق المؤامرة إلى حدّ الحيرة فنسأل من هو داعش ولماذا تطرّفه ولماذا إرهابه، ولماذا في هذا التوقيت بالذات؟ وهي بالمناسبة ليست أسئلة مهمة على الإطلاق، ليست مهمة، لأن الداعشي قرّر الموت، تارة للدخول إلى الجنة، وتارات للخروج من جحيم الحياة. ونحن لا يمكننا أن نكافح داعش أبداً، فهو انطلق ومض وسينتهي بانتهاء مكوناته، لكن علينا أن ننهي الأسباب المجهزة لداعش جديد، لكي نحمي أجيالنا المقبلة والمستقبلية، نحميها من ماكينة ومقص موجودين إلى الأبد، لكن علينا أن نقنع هذا الإنسان بأنّ هذا الثوب يوجد ما هو أفضل وأجمل منه، ثوب الحياة والكفاح وتحقيق الذات، والوصول إلى المجد الحقيقي.

إذن فلنسجل معاً أن داعش قد يكون رداً على داعش آخر في السياسة، لكنه داعش الذي تكوّن بحكم المنطق القائم. ومن لا يقتنع نحيله إلى هتلر وموسوليني، لكن لماذا هذين المثلين؟

هناك من قدّم مقاربة في هذا الشأن فقال، بأنّ الفاشية تطلق عادة على الحركات السياسية الجماهيرية القومية المتعصبة والعنفية والملتفة حول قائد يتقن الخطابة وطرح الشعارات الشعبوية الغوغائية، ورغم أن موسوليني هو أول من استخدم هذه الكلمة إلاّ أن الدولة الشمولية التي أسّسها هتلر والحزب النازي في ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية كانت أقوى تجسيد للنظام الفاشي.

وتابع ليقول بأنّه يوجد تشابه رهيب وعجيب ومخيف في الوقت ذاته بين حركة الأحزاب الدينية في العالم الإسلامي والحركة

الفاشية في إيطاليا وألمانيا، وبأنه للإجابة عن سؤال حول كيفية ظهور هذه الأحزاب وتأثيرها في العالم الإسلامي، يمكن القول اختصاراً أن النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا كانتا في بعض الملامح العامة والدوافع الأساسية، محاولة من الدولتين للتمرد على الدول الأوروبية الأوسع نفوذاً والأكثر حجماً أو الأسبق في التوسّع الاستعماري. ولجأت ألمانيا إلى النفخ في نظريتها العنصرية فيما ركّز الإيطاليون على أمجاد الحضارة الرومانية وغزواتها. وقد أدّى النجاح المؤقت الباهر وبخاصة في ألمانيا إلى إعجاب طاغ بهتلر والدولة القومية الشمولية في دول عربية وإسلامية عديدة شمل النخب السياسية الحاكمة والمعارضة[26].

هذه المقاربة تقدّم لنا نصف الحقيقة وليس الحقيقة الكاملة، ولا أدري ماهية الأسباب التي تمترست في ذهن هذا القائل لأن يغض الطرف والنظر عن الأسباب الحقيقية والجوهرية لبزوغ فجر أودولف هتلر في ألمانيا وبينيتو موسوليني في إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد السياسي في فترة ما بين الحربين العالميتين في النصف الأول من القرن العشرين.

أكثر من صحيح القول بأن هتلر نفخ في البعد العرقي الجرماني للألمان وقال لهم إن هذا العرق هو السيّد ويجب أن يسود العالم، وأكثر من صحيح أن موسوليني استلّ سيف الأمجاد العظيمة لروما عبر التاريخ. لكن الأسباب الحقيقية التي قادت الألمان والطليان إلى رصّ صفوفهم وإعادة تموضعهم، هي تلك الأهداف التي أدركها كل من هتلر وموسوليني وراهنا عليها.

الانكسار، الاستضعاف، الهزيمة النكراء، شروط الاستسلام المذلة التي دوّنت في قصر فرساي عقب الحرب العالمية الأولى، هي العوامل الحقيقية التي أدركها هتلر وموسوليني وأقاما عليها مداميك سلطانهما. إن هذين الرجلين نجحا أيما نجاح في اللعب على التوازنات النفسية للشعبين الألماني والإيطالي، عندما جعلا الشعبين المذكورين يعترفان أولاً أمام نفسيهما بحقيقة الهزيمة من دول الحلفاء، وزرعا في الأنفس بذور الانتقام واسترجاع الكرامة. فتنادت الجموع الألمانية المليونية ومثلها الإيطالية للاستعداد لمعركة الرد، رد الصاع ورد الكرامة، وهذا ما حصل.

صحيح أن «السيستام System» اليوم قادر بسهولة على السيطرة على بقايا النازيين في ألمانيا، لأنه أي السيستام اقتدر على المحافظة على إنجازات النازية ولم تعد حاجة له، لكن النازية الجهادية اليوم في عالمنا العربي هي من يتحكم في السيستام، هي من يقولبه ويصنعه، وهي من يجمع أعداء الأمس ليكونوا حلفاء الضرورة ضدها. فالعالم مع داعش يعيش ردّة الفعل لأن داعش هو من يصنع الفعل، وهو من يبادر ويبدأ، وتلك أخطر مكامن المخاطر. فكيف نقلب المعادلة، ونحشر داعش وأقرانه في زاوية السيستام الصغيرة؟ هذا هو السؤال الأهم.

الفصل السابع

داعش بين الأهداف السياسية والأبعاد الاستراتيجية

ويبقى السؤال المحيّر، الذي حارت به العقول، فكلّما همّ أحد من كبار الساسة أو المراقبين أو المحللين، ليطرح نظريته ورؤيته حول ماهيّة داعش وحول من يقف خلفه وحول تحديد لحساب من يعمل، يجد نظريته تسقط في مستنقع الصفرية.

وحتى اليوم، حتى كتابة هذه الصفحات، ورغم كثرة ما كُتب وكُتّب في صفحات الجرائد والمجلّات والدوريات والمواقع الإلكترونية، المرموقة منها وغير المرموقة، ورغم كثرة الألسن التي اجتاحت شاشات الأرضيات والفضائيات، لكن أحداً لم يقدر على تحديد ماهية داعش الاستراتيجية.

بالطبع، الانتماء إلى أجندة سياسية معيّنة، واختلاط المشاعر بالحقيقة والمنطق، وفقدان الموضوعية العلمية في الطروحات، وقراءة الأحداث والوقائع بطرق مجتزأة، هي عوامل تضاف إلى عوامل أخرى، مرتبطة بتركيبة داعش وممارساته، وتغلغل التناقضات في سياقه السياسي ومثيله العسكري، عوامل تآمرت مع بعضها وعلى بعضها، لتكون النتيجة أن لا أحد أدرك داعش.

المصطلح «داعش»، لوحده لا يفي بالغرض لمنح تنظيم الدولة الإسلامية هوية معينة، وهي هوية القتل المنفلت والوحشية والجنون الأسطوري، ولكأنما هناك قصداً وعمداً، قد أُريد رميه في ذلك المصطلح، ليشكل غمامة تحجب شمس حقيقة «الخلفية» الاستراتيجية. فبالفعل، تجدنّ الناس اليوم لا يعنيها كثيراً معرفة المستفيد الاستراتيجي من داعش، طالما أنها أمام أجمل نكتة عنفية عرفتها البشرية في تاريخها، فمن ينكر أن داعش أضحى موضة القرن الحادي والعشرين، ومن ينكر أن داعش بات اسماً محبّباً باللاوعي عند العامة غير المسيّسة، ومن ينكر أن داعش بات كاريزما للمجرمين في كل أصقاع الأرض، إنه ذلك الحقل المغناطيسي الجاذب، وبالفعل جذب أيّما جذب.

هناك من قال أن النظام السوري هو من أنجب داعش وهناك من قال أن النظام العراقي وبالتحديد نوري المالكي هو من صنع داعش، وهناك من قال أن الاثنين السوري والعراقي هما من أتى بداعش، وهناك من قال بأن الأميركيين هم من يقف وراء داعش، وهناك من يقول بأن قطر وتركيا تقفان وراء تنظيم الدولة، وهناك من اتهم السعودية بذلك.

لكن كل تلك الفرضيات لم تصمد، فبعضها سقط سقوطاً نهائياً وبعضها لم تظهر أية دلائل على تأكيدها أو حتى وضعها في لائحة الفرضيات الجدية.

ونرى، أن البحث عن الواقف الاستراتيجي خلف داعش لا يهم كثيراً، فالذي يهم هو ما يفعله وما يحصل بسببه وبأفعاله

وارتكاباتـه علـى أرض الواقـع والتنفيـذ، وهو الواقـع الذي يمكن الاستدلال به إن توقفنا عنده وقفة الموضوعية، عندما نقرّر البحث عـن ذلـك المنتصـب خلفـه. فمن يريـد أن يعرف مـن هو داعش، يكفـي أن يتفحـص النتائـج التـي حدثـت بسـبب داعـش، ثم يقوم بقراءتها وبربطها وفصلها وقياسها، فهكذا يمكنه التوصل إلى بعض المستخلصات، التي بالتأكيد لا يمكن أن ترتقي إلى درجة الحتمية، فلا حتمية مع السياسة، طالما أنها لعبة الممكن والاحتمال.

لنناقـش معـاً أبـرز التحليلات التي طرحت حول ماهية داعش الاستراتيجية:

النظرية الأولى والمتداولة كثيراً في شتى الأروقة وعلى العلن تقـول بـأن داعش هو صنيعة الاسـتخبارات السـورية بهدف ضرب الثورة السـورية وتشـويهها، وأن القائلين بهذه النظرية يسردون أكثر من سيناريو أو قصة لتثبيت تصوّرهم.

ويقـول البعـض أنـه «منـذ أن بـدأ الخـلاف بيـن البغـدادي والجولاني تغيّرت ممارسـات النظام السـوري مع داعش، لتتحوّل إلـى تقديـم الدعـم الغيـر مباشـر له سـعياً فـي تثبيته على السـاحة «الجهادية» السورية، بعد أن أصبح طرفاً أساسياً في قتال «النصرة» وأغلـب فصائـل الثـورة السـورية، ليشـكّل بذلك قضيبـاً غليظاً لها على الثورة السورية، تمثّلت تلك الممارسات في إيقاف استهداف مواقعه العسكرية ومقرّاته بهجمات الجيش السورى - إلا فيما ندر - فاتحاً له المجال في عدة مناطق للحصول على الأراضي السورية، واستيلائه على عدة مخازن للسلاح التابعة للنصرة ولبعض الفصائل

الأخرى بل وللجيش السوري نفسه، وذلك عبر عملياته التي كانت تتم بمقاومة متواضعة من الجيش السوري، بل وصل الأمر إلى دعمه عسكرياً في قتاله للجبهة وحلفائها، مستخدماً القصف الجوي لتوفير غطاء له، ويمهّد له الاستيلاء على مناطق محرّرة تحت سيطرة غيره من الفصائل، حيث يستهدف داعش بالأساس مقرات الجبهة ومخازن أسلحتها (قام طيران النظام مؤخّراً بقصف قوّات الفصائل المسيطرة على مدينة الباب في حلب والتي كانت تحاصرها قوات داعش في محاولة لاقتحامها والسيطرة عليها، وهو ما مهّد الطريق لها بالفعل لتنجح في ذلك) هذا بالإضافة إلى استهداف طيران النظام لقوات «جيش المجاهدين»، «جبهة ثوار سورية» و«الجبهة الإسلامية» (الفصائل الرئيسية التي تواجه تنظيم الدولة) في مناطق متفرّقة في ريف حلب وإدلب، لتقويض قدراتها وإضعافها لصالح «داعش» وتكثيف استهدافه مقراتها ومواقعها العسكرية.

ويعتبر صاحب هذا الرأي أن كل ما سبق من ملابسات مريبة - سواء فيما تعلّق بنشأة تنظيم الدولة وعلاقته بالجبهة، أو أدائه العسكري - يثير شكوكاً حقيقية تجاه الدور الذي يلعبه داعش على الساحة «الجهادية» السورية وتبعاته على مستقبل الثورة السورية، لنجد أنفسنا أمام نتيجة واضحة مؤكّدة وهي أن هذا التنظيم أصبح شوكة ضارة في ظهر الثورة السورية، نزعها يعد أولوية وخطوة أساسية للمضي قُدماً[27].

وفي نفس السياق المؤامراتي، ينطلق بعض آخر من الظروف التي نشأ فيها داعش ليقول أن هذا التنظيم برز في مكان وزمان، يثير

التساؤلات عن من، وممن تُستخدم هذه الجماعة، أو من استطاع اختراقها. فقد ولد داعش فجأة على الأرض السورية المحترقة، في وقت بدا انهيار نظام بشّار الأسد ممكناً، فظهور داعش أنقذ النظام السوري، بتخويف العالم من بديل إرهابي للأسد، وقيامه بقتال المعارضة المسلحة المدنية.

وتكرّر السيناريو في العراق. كان نوري المالكي، الأكثر التصاقا بإيران، على وشك الخروج من رئاسة الحكومة، بعد أن أجمع قادة الشيعة والسنة العرب والأكراد على رفض التجديد له، ثم ظهرت جماعة داعش، فاستولى التنظيم على الموصل، ثاني أكبر المدن وأكثرها تحصيناً، ليصعد نجم المالكي طارحاً نفسه، الزعيم الضرورة لمواجهة الإرهاب السني[28].

وبتأكيد على ذات السياق يرى بعض ثالث أن داعش قد استغل مأزق المالكي والأسد ليقيم على حسابهما ما اعتبره نواة «الخلافة» الإسلامية في المنطقة، وما اعتبره النظامان من ناحيتهما مدخلاً لتوحيد معركتيهما ضد شعبيهما تحت مسمّى «الحرب على الإرهاب»، ودعوة العالم (بما فيه «الشيطان الأكبر» الأميركي هذه المرة) للوقوف إلى جانبهما فيها.. ومعها طبعاً تجاهل الثورة في سورية والعراق على نظامي العائلة والشخص، فضلاً عن الحرب التدميرية للشعبين والبلدين رداً على ذلك.

وما حدث إذاً ليس سوى «معركة واحدة».. مع الإرهاب وضده في آن واحد، ومع نظامي المالكي والأسد وضدهما في الوقت ذاته أيضاً. أمّا الضحية المستهدفة في الحالين، فهي ثورة

الشعبين في سورية والعراق في المقام الأول، ومن خلفهما قضايا الحرية والعدالة والديموقراطية في المنطقة والعالم.

ذلك أنّه لا حاجة للقول أنّ ما يمر به نظاما الأسد والمالكي هـو دليـل آخر على فشـل ما سـمّي دائماً مشـروع إيـران الإقليمي والدولـي، ليـس في سـورية والعراق فقط وإنما فـي المنطقة كلها، وأن ما قاما به عبر الحدود بين بلديهما في الفترة الأخيرة، بالتنسيق مـع داعـش أو مـن دون تنسـيق مباشـر، هو محاولـة جديدة لإنقاذ نفسيهما (وإنقاذ المشروع الأم طبعاً) من خلال اللعبة القديمة إياها: تكبير حجم «البديل» وتعظيم خطره على المنطقة وعلى العالم![29].

وفي الضفة الأخرى من نظرية المؤامرة، هناك من أدار ظهره لسـوريا والعـراق وإيـران ليضـع نظريتـه التـي تنطلـق مـن الوهابية السـعودية التـي تصـرّ علـى أن تكون فـي موقع السـيادة والصدارة في الخارطة «السنية» العالمية، فخصومة المملكة العربية السعودية مع الإخوان المسـلمين ومع القاعدة ومع كل الأطياف السـنية غير الوهابية نابعة من متطلبات موقع الصدارة هذا. ووفق هذا المنطق، فـإنّ المملكـة نجحـت فـي اختـراق القاعـدة حيـث كان الاختراق واضحـاً بسـبب وحـدة المنشـأ والتماهي الثقافـي - الفقهي، لا بل وصل الاختراق إلى حد التوظيف الاستراتيجي. «وهناك من يعتقد أن الوهابيـة لا تتحكـم بالأجندة السياسـية للقاعدة وداعش ولكنها تؤثر عليها، بالاستخبارات والتمويل والدعاة، فتمكنت من توظيفها في أفغانستان والعراق وسوريا ولبنان. كانت القاعدة، فرع بن لادن - الظواهـري، الأكثـر جـرأة علـى تحدي السـعودية، أمـا القاعدة،

فـرع الزرقـاوي - البغـدادي، فتقاطعت مع الوهابية في أولوية قتال المارقيـن والمرتديـن بالتحديد الشـيعة، وهذا يبـرز عمق الاختراق الوهابي لداعش ولكن ليس لدرجة السيطرة عليه. فحال السعودية مع داعش كمن يطعم ذئباً برياً في حديقته لإخافة جيرانه والسطو عليهم»[30].

وبعيداً عن المقاربات العربية لداعش، هناك من اعتنق المقاربة الغربيـة، فللولايـات المتحـدة دور عريـق فـي إنجـاب التنظيمـات الإسـلامية المتطرّفة، وولادة داعش تأتي ضمن هذا السـياق حيث أرادت واشـنطن مـن خـلال هـذا التنظيم حماية إسـرائيل وتمكينها فـي البقـاء على رأس منطقة الشـرق الأوسـط، ولتحقيق ذلك تريد الولايات المتحدة تمزيق المنطقة واسـتغلال الجماعات الإسـلامية فـي ذلـك حتـى تضـرب الإسـلام والمسـلمين وحتـى لا يبقى في المنطقة متماسكاً سوى إسرائيل.

وهناك من ترك كل المقاربات الأحادية ليضع الأمور في إطار مؤامـرة دوليـة هـي أشـبه باتفاق دولـي يقضي بضـرورة قيام تنظيم متطرّف جديد، يهدف بشـكل رئيسـي إلى حصر الإرهاب الدولي في منطقة معينة، لتنظيف مناطق الأقطاب، فالإرهاب لن يكون أداة أحدهـم فـي إدارة معاركـه مع الطرف الآخر أو الأطراف الأخرى. فداعـش بحسـب هـذا المنطـق هـو منظمة تتـلاءم وطبيعـة الوضع الدولي الجديد، وتحديداً، وضع الشـرق الأوسـط، المرتبط أصلاً بالصراع الدولي المحتدم على الزعامة من جهة، ومعالجة المشكلة التي استعصت لديهم، والمتمثلة بانتشار ظاهرة التطرّف في أغلب

دول العالم العظمى! وموقف أجهزة مخابرات هذه الدول من هذه النقطة بالذات، ومعالجتها، وكيفية إدارة وتوجيه الصراع بعيداً عن الخطوط الحمر لهذه الدول. وهناك من يتساءل: هل العالم الذي يغزو الفضاء، بشكل شبه يومي، عاجز عن تقديم حلول ناجعة للإرهاب؟ أم إن الإرهاب، هو في الأصل، أزمة يتم توجيهها إلى منطقة محددة دون غيرها وفق خارطة مخابراتية دولية ترتبط بحفظ السلام الدولي مقابل توجيه الإرهاب، وتوحيد منابعه المتعددة ضمن منبع إرهابي واحد، والضحية هو شعب واحد أو شعبين؟ لماذا داعش؟ أي لماذا دولة العراق والشام الإسلامية؟ والقصد من هذا التساؤل لماذا تم تحديد المنطقة الجغرافية (العراق والشام) لأن تكون نقطة جذب تتجمع فيها الجماعات المتطرّفة عالمياً، بدلالة الشيشان، الصرب، الأمريكان والفرنسيين ولنا أن نعدد ما يخطر في البال من الجنسيات الأوروبية والأمريكية والأفريقية والآسيوية وسط بلاد العرب المسلمين؟! والقصد من هذا الكلام ثمة لعبة معقّدة لزجّ العالم كله ضمن مصطلح ضيق جداً هو دولة العراق والشام كيف؟[31].

إن العراق اليوم ونظرية حفر (بئر واحد) لكل الإرهابيين في العالم لمعالجة الخارطة العالمية التي امتلأت خطوطاً حمراء، تشير إلى مواقع المتطرّفين وتحركهم العالمي، والتريث عن إحداث معالجة أو تحصين لمناطق تدفقهم خاصة إلى العراق وسوريا زاد من خطرهم على هاتين الدولتين، والأخطر في تواجدهم أنهم في العراق؛ لعدم امتلاك الخبرات العسكرية الواسعة، والتي بإمكانها

أن تعالج هذا التدفق وسط هذا التريث الدولي، فهذه الدول لن تسعى حتى في إيقاف تدفق متطرّفيها وهجرتهم للجهاد في العراق، بل على العكس من ذلك حيث نشهد دعماً لهؤلاء لمغادرة البلدان التي باتت تئن من مشاكلهم، فضلاً عن دول الجوار وأسلوبها المباشر في دعم الإرهاب بناءً على صراع طائفي تديره إسرائيل والمخابرات الدولية لتحقيق أغراض مماثلة.

هذا السلوك المخابراتي الخطير جاء لتحقيق أهداف رئيسية وأهمها[32]:

الأول، جعل إسرائيل في ظهر المتقاتلين ودعم بيئة التقاتل لتشتد تناقضاً وفق بناءات متولّدة بالأصل من الصعقة الفكرية المخابراتية لضمان وصول المزيد من المتطرّفين على مستوى العالم لتحويل النقاط الحمر «الخطرة» على الخارطة الدولية إلى نقاط «خضر آمنة».

الثاني، إحداث موجة فكرية دولية ينفذ من خلالها المتطرّفون، وفي الوقت ذاته إحداث تناقض يُسهم في مزاحمة إيران وخنق تمددها باتجاه إسرائيل باستخدام المنظمات الإرهابية ذاتها.

الثالث، تنفيذ مشروع بايدن ميدانياً، المشروع وخارطته بل حتى فلسفة ألوانه، وتأكيد أهمية هذا المشروع على إدارة الأزمة السياسية العالمية.

الرابع، تحقيق حلم الدولة الكردية الكبيرة، وإدخالها في الساحة الدولية لما تشكله من ضغط على الدول الإقليمية بداية من دويلات مشروع بايدن أعلاه، وانتهاءً بإيران وتركيا وسوريا،

وما يمارسه الأكراد اليوم دليل على ذلك.

هـذه المؤشـرات على المستوى الخارجـي والدلائل على أن ثمة تحركات عالمية مقصودة للدفع بهذا الاتجاه هي:

- الصمت المريب لمجلس الأمن الدولي واكتفائه بالتنديد.
- الولايات المتحدة التي صنعت القاعدة فيما مضى، وتحجّجت علـى مـدى سـنين طـوال فـي أفغانسـتان بحجـة واحـدة هي (وعـورة المسـالك الجبليـة)، التـي تقـف حائـلاً دون القضاء عليهـا، فمـا هي حجتها اليوم؟ وأوصلت سياسـتها، وسياسـة حلفائها العراقيين، الشعب العراقي إلى هذه المرحلة الحرجة، دون أي اهتمـام بحجـم التضحيـات التي سـوف يقدمها، فما هو المسـوّغ الذي تسـتند إليه في عدم تجهيز العراق بأسـلحة فتّاكة ذات فاعلية أكثر تؤدي الغرض المطلوب، وتوقف تدفق المتطرّفين؟
- توقيـت التصريـح الأمريكي الذي يقول (لقد زوّدنا المعارضة في سـوريا بأسـلحة فتّاكة) وبعد هذا التصريح مباشـرة يجتاح داعـش الموصـل بأسـلحة فتّاكة أيضاً، فما هو التفسـير مقابل سكوتها وعدم تجهيزها، أو التزامها بإتفاقية الإطار الاستراتيجي الموقعة بينها وبين العراق؟
- كيفيـة إدارة الصـراع في سـوريا بنسـبة عجيبـة 50٪ إلى 50٪ وعدم تفوّق أي جهة على حسـاب الأخرى يؤشـر إلى وجود مخابـرات دوليـة وراء خلـق الأزمـات باسـتغلال الظـروف

المحيطـة فـي كل منطقة، اسـتدعت تواجداً من هذا النوع في العراق لوجود عوامل تساعد على ذلك.

- روسـيا والأزمـة الشيشـانية التـي اختفت فجـأة، بتوقيت دقيق من روسـيا لتظهر ألقاب شيشـانية ضمن القيادة الداعشـية في الموصـل وغـرب العـراق، بـل ضمن حدود مشـروع «بايدن» سيئ الصيت.

هـذه المؤشـرات تعطـي دلائـل علـى تصرّف دولـي بأحداث العراق الأخيرة، وتعد قراءة خارجية لعملية تصنيع أو إعادة هيكلة الجماعات الإرهابية وفق النظرية أعلاه.

وفي التعقيب على كل ما تقدّم من نظريات وتصوّرات حول البعد الاستراتيجي في داعش، فلقد أثبتت الأحداث أن أياً منها لم يكـن صحيحـاً، لا بـل إن بعض هـذه التصوّرات قد بُني على خطأ في عرض الأحداث، فالذين قالوا إن النظام السوري وضع اللبنات الأولى لإبصار هذا التنظيم النور قد بنوا طروحاتهم على فكرة أن هذا النظام قد أخرج قادة هذا التنظيم من سجونه، وهذا قول غير دقيق، على اعتبار أن الذين كانوا في السـجون السـورية هم بشـكل رئيسـي قـادة جبهـة النصـرة وليس تنظيـم الدولة الإسـلامية وعلى رأسـهم زعيم النصرة أبو محمد الجولاني الذي أقام في السـجون السـورية بين عامي 2008 و2011، أما زعيم الدولة الإسـلامية أبو بكر البغدادي، فهو لـم يكـن مسـجوناً في سـوريا، وإنما في العراق مـن قبـل القـوات الأميركية بين عامـي 2005 و2009. والذين بنوا طروحاتهم على إعفاء الجيش السوري لمقاتلي داعش من ضرباته

ومنحه لهم بعض الغطاء الجوي في ضرب باقي تنظيمات الثورة السورية، فيعتبر أمراً طبيعياً في منطق الحروب، فمن حقك أن تساهم في تصفية خصومك بعضهم بعضاً، لكن الأحداث الأخيرة أكدت أن حرب داعش ضد الجيش السوري هي حرب ضروس وقد آذت كثيراً الجيش السوري.

وإن نفس المنطق ينطبق على حدود العلاقة بين نوري المالكي وداعش، فسقطت كل التصورات التي وضعتنا أمام نتيجة أن نوري المالكي سيستخدم داعش لتقوية موقفه، عندما أُزيح هذا الرجل رغماً عنه من منصبه كرئيس لوزراء العراق.

أما بالنسبة للنظرية القائلة بدور سعودي في ولادة داعش ليكون جواداً رابحاً في وجه إيران وما يسمّى بالتطرّف الشيعي والمشروع الإيراني في المنطقة، فإنه تصوّر بعيد كثيراً عن المنطق، إذ لا يمكن القبول سعودياً برجل يقول أنا «الخليفة» عندما ندرك أن «الخلافة» تلغي الملكية وتحيل الجميع إلى أمراء ولايات في أحسن الأحوال. أكثر من ذلك، فالبعد السلفي الذي يجمع الفريقين تكرهه المملكة ولا يمكن أن تقبل به، لأسباب كثيرة معروفة، أهمها أنها لا يمكن الجمع بين السلفية الدعوية والسلفية الجهادية. وهنا دعونا نُسلّط الضوء على التبرير الذي ينطلق منه العديد من الدارسين للظاهرة الجهادية، وذلك عندما يقال أن هذا التنظيم مخترق في مكان ما ليعمل على تحقيق مصلحة طرف ما، هكذا أمر ممكن أن يحصل، لكن حدوده تبقى ضيقة جداً، فالاختراق في نهاية المطاف لا يعني صنع هذا التنظيم أو ذاك. لذلك ليس من المستبعد أن يكون داعش

مخترقاً من المخابرات السعودية أو من غيرها، لكن الذئب الذي يكون في حديقتي هو ذئب أتت به الغابة وليس أنا، وهو إن أفزع جاري إلاّ أنه قد يفزعني أيضاً، وأبناء صحراء شبه جزيرة الأرض يدركون أكثر من غيرهم هذه الفلسفة.

أمّا التصور المبني على لعبة جديدة للاستخبارات الأميركية وباعها الطويل في صناعة التنظيمات المتطرّفة، فإن الاستدلال بدور الولايات المتحدة في صناعة القاعدة لإخراج السوفيات من أفغانستان هو استدلال صحيح وفي محله، لكن يومها وجدنا أن الانقلاب القاعدي على أميركا لم يحدث إلا بعد أن حقّقت الولايات المتحدة هدفها من المقاتلين العرب والإسلاميين في أفغانستان ولم يحدث في أول الطريق، وهو الأمر الذي لا ينطبق على داعش الذي لم يتردد ومنذ بداية مشوار دولته في تهديد الولايات المتحدة وذبح مواطنيها بطريقة مهينة للكرامة الأميركية وإعلان زعيم الدولة أبو بكر البغدادي بأن له ثأر مع أميركا وسيجرها إلى أرضه لمقاتلتها، فسارعت هذه الأخيرة لتشكيل حلف مضاد وللمباشرة في شنّ هجمات جوية على معسكرات داعش في العراق، إضافة إلى عوامل كثيرة تبعد شبهة داعش عن الولايات المتحدة.

من يقف وراء داعش إذاً؟

رغم إصراري على عدم أهمية هذا السؤال، إلا أن محاولة الإجابة عليه قد تكون مفيدة، أقول المحاولة لأنه لا أحد يمتلك الجواب الأكيد والحتمي على هكذا سؤال.

لنناقش معا ما أنتجه وأفرزه داعش حتى اليوم من نتائج على أرض الواقع:

على الصعيد العراقي، وبعدما كانت الولايات المتحدة تملك أسهماً كبرى ومعتبرة في التحالف الشيعي العراقي الذي يمثل الشيعية السياسية في العراق، التي تتبع استراتيجياً للخط الإيراني، فالذي فعله داعش في هذا الإطار من تهديد جدي وخطير لهذه الشيعية السياسية، قاد المجموع الشيعي إلى التكتل والتضامن أكثر، بل والى التمسّك براعيه وداعمه الإيراني، فلا مسايرة للولايات المتحدة بعد اليوم، إذا كان الأمر مرتبطاً بالأمن القومي الشيعي العراقي. لذلك أعتقد أن إزاحة نوري المالكي من المشهد العراقي كان بأمر من المرجعيتين الدينية والسياسية العليّتين وليس من باب التنفيذ لأمر واشنطن. وهذه الإزاحة لها متطلباتها المعتبرة، والتي يأتي في طليعتها وقف المدّ السني العراقي صوب داعش وبالتالي تنفيس الاحتقانات لدى السُنّة العرب في العراق، كي لا يتحول داعش من حالة تعبيرية إلى حالة عامة ودائمة. وإن مثل هكذا تحوّل هو ليس لصالح الولايات المتحدة التي ظلت كل الفترة السابقة شريكة مع إيران في حكم العراق.

وعلى الصعيد العراقي أيضاً، فإن ما أحدثه داعش في الشطر السنّي العربي من العراق لم يكن البتة لصالح الولايات المتحدة، فالمساحات السنية التي كانت تلعب واشنطن بها عراقياً، تقلصت إلى أبعد الحدود مع داعش، خصوصاً تيار الإخوان المسلمين الذي لطالما منح الاحتلال الأميركي والنفوذ الإيراني بعض مشروعية في

العراق. فالكلمة العليا في سُنّة العراق اليوم هي لداعش الذي سار خلفه الكثير من التنظيمات العراقية السياسية والعسكرية.

وفي المشهدين الشيعي والسني العراقي، يبدو أن الأمور عرفت تبدّلاً جديداً، فالغزو الأميركي للعراق أفرز عن قصد نسقاً يكون فيه الشيعة هم الأقوياء وهم الممسكون في السلطة، على حساب السُنّة الضعفاء، لكن مع داعش، يمكنك أن تبدأ بالحديث عن شبه توازن شيعي سني، حتى لو أزيل داعش عن الخارطة، فالبديل عن الشراكة الحقيقية باتت الشيعية السياسية تدركه في العراق.

وعلى الصعيد الكردي العراقي، أعطى داعش أكراد العراق ما لم يعطهم إياه أحد طوال أعوام المطالبة بإقامة دولة لهم، تحفظ كيانيتهم وتجمع عناصر قوتهم وتقدر على حمايتهم من أي تهديد خارجي، فالمنطق الكردي اليوم بإقامة دولة خاصة للأكراد يملك كل مقومات التبرير، والمسألة غير مرتبطة بوجود داعش بحد ذاته بقدر ما هي مرتبطة بهجوم داعش على المناطق الكردية ومحاولاته الحثيثة في غزو إربيل عاصمة إقليم كردستان. وهذا هو المنطق الذي لا يطيقه الأتراك، فلطالما شكّلت المطالب الكردية بإقامة دولة مستقلة مقتلاً في العين الاستراتيجية التركية، لأنه المنطق نفسه الذي سيدفع أكراد تركيا على التحفيز والمطالبة بالمثل، مما يهدّد الأمن القومي التركي ووحدة تراب تركيا العظمى.

وهكذا فإن الولايات المتحدة وتركيا هما أول الخاسرين من ممارسات داعش «الاستراتيجية»، فهل من خاسرين آخرين؟

ونبقى في العراق ونفتح ملف المسيحيين الذين هجّرهم داعش من العراق، ومع هذا الملف فتح ملف مسيحيي الشرق، حيث ظهر القادة المسيحيون، السياسيون والدينيون، في الشرق بمظهر العاتب والناقم على الغرب الذي لم يقف إلى جانبهم، والحقيقة هو أن الغرب لم يكن ليستطع أن يقدّم شيئاً لهؤلاء المسيحيين، فالأمور سارت هناك بوتيرة متسارعة، وهو الأمر الذي سيدفع المسيحيين إلى البحث عن حضن دولي يقيهم شرّ التطرّف الإسلامي.

لو انطلقنا إلى الضفة الثانية من داعش، أي الضفة السورية، فسنجد أن النظام في سوريا، بالرغم من خساراته الكبيرة نتيجة ضربات داعش له، إلا أن عائداته من داعش تفوق تلك الخسارات، فداعش ومنذ نشأته وحتى اليوم يخوض حروبه الضروس ضد أطياف المعارضة العسكرية الثورية والكل مجمع على إصابة هذه المعارضة بالهلاك بسبب داعش الذي لم يرحم حتى جبهة النصرة، والمشهد في سوريا اليوم، المشهد العسكري، يبرز وكأن الصراع العسكري الكبير هو بين داعش والقوات المسلحة السورية، أمّا الجيش الحر والتنظيمات المسلحة الأخرى، الإسلامية وغير الإسلامية، فتكاد تلفظ أنفاسها. أكثر من ذلك، فالمجتمع الدولي اليوم في أزمة، ذلك أنه يدرك أنه غير قادر على اجتثاث داعش من سوريا بدون معاونة النظام هناك، وهذا ما يمنح النظام جرعة تنفّس جديدة ولو كانت اصطناعية.

وفي نفس الوقت، فداعش يشكل تهديداً سياسياً وأمنياً على الأقل، إن لم نقل عسكرياً، للدول العربية المسمّاة بالمعتدلة، أي

الدول العربية الحليفة للولايات المتحدة، وعلى رأسها المملكة العربية السعودية والكويت والأردن.

ضفْ على كل ذلك أمراً ملفتاً وهو: لماذا يتحاشى داعش غزو العواصم سيما في العراق وسوريا، ولماذا لم يقم داعش بتجميع قواته لتوجيه ضربات قاضية لبغداد ودمشق بدل الانتشار والقتال في جبهات متعددة؟ هل لأنّ العواصم هذه خط أحمر لا يجب الاقتراب منه؟ فسقوط بغداد يعني سقوط النفوذ الإيراني والنسق الحاكم، وسقوط دمشق يعني سقوط النظام السوري؟ ومن هو الذي لا يريد ولا يطيق سقوط هاتين العاصمتين؟ بالطبع تريد الولايات المتحدة وحلفاؤها ذلك وتتمناه.

والذي يطرح فرضية أن العاصمتين العراقية والسورية بمثابة خط أحمر على داعش هو ما قيل عن خطوط حمراء تجاوزها داعش عندما جهز جيشه الجرار للزحف نحو إربيل وتدخّل الأميركي يومها لحماية مصالحه في هذا المنتزه الكردستاني. لكن يبدو أن إربيل على العكس تماماً لم تكن خطاً أحمر، وإلاّ لما اتجه نحوها داعش، فالخطوط الحمر في مكان آخر، لأن المتعامل مع داعش قطب آخر يريد أن يمنح إربيل وكردستان القوة والعظمة لكسر إرادة تركية معروفة.

وهذا القطب الدولي الآخر هو من يريد تقوية عظام بغداد ودمشق وهو من يريد إضعاف الجيش الحر والجبهة الإسلامية وجبهة النصرة وغيرهم في سوريا.

هذا القطب الدولي هو من يريد أن يقول للمسيحيين في

الشرق بأني الوحيد القادر على حمايتكم، فأنتم تقطنون أرضاً عربية مستقبلها في قبضتي وليس في قبضة الأميركي المنكفئ كثيراً.

هذا القطب الدولي، يبدو أنه نقش لسنوات مع النقشبندية فجاء زعيمها عزّة الدوري ليبارك القاعدة وداعش، وما يقوله الكثيرون عن أن المجالس العسكرية والسياسية والأمنية لداعش يقودها ضبّاط الرئيس الراحل صدام حسين هو قول صحيح.

إذن علينا التركيز كثيراً لمعرفة ما الذي دفع أبو بكر البغدادي زعيم داعش ليفترق عن القاعدة ويؤسّس دولته في العراق وسوريا، فمن هنا تبدأ القصة وليس من مكان آخر. فهذا الرجل، يجمع كل من كتب عنه أنه يضمر ثأراً مع الأميركيين، وقد أعلن عن ذلك عندما خرج من سجن بوكا الذي اعتقلته فيه قوات الاحتلال الأميركي، فخرج من السجن ليبحث عن الذين هم الأشد كرهاً للولايات المتحدة، بالطبع نتحدث عن بعثيي الرئيس صدام حسين ولم يزل الوريث - القائد على قيد الحياة.

وبذلك نحن أمام ثلاثي يتشكّل من عزة الدوري ومن معه من ضباط وجنود الجيش العراقي السابق، ومن أبي بكر البغدادي أحد كبار قادة القاعدة وأكثرهم حنكة ودهاء في الميدان والمتتلمذ على يد أبي مصعب الزرقاوي الذي لم يرحم ولا أدري إن كانت تحل عليه الرحمة (وبالمناسبة يمكننا إلى حد كبير اعتبار أبي مصعب الزرقاوي هو المؤسّس الحقيقي لداعش، فاستراتيجية هذا القائد القاعدي لطالما انعطفت كثيراً وجذرياً عن استراتيجية القاعدة، ففي الوقت الذي رفضت فيه القاعدة تكفير عموم الشيعة وركزت

عملياتها ضد العدو الأميركي، البعيد القريب، كان لأبي مصعب الزرقاوي رأيه المختلف والمخالف فركز عملياته في العراق على الشيعة وعلى الجيش العراقي والقوات الأمنية العراقية متبنياً نظرية العدو القريب التي تبنّاها داعش)، ومن القطب الدولي الصاعد الذي يريد أن يستثمر اليوم مفاعيل وإنجازات المقاومة العراقية، التي انصهر العديد من تنظيماتها العسكرية والسياسية في الخلافة.

ونعود إلى هذا القطب الدولي الذي التقت مصلحته مع مصلحة داعش وكانت أفعال داعش على الأرض تلبي طموحاته الاستراتيجية الكبرى في منطقة الشرق الأوسط، هذا القطب كان يريد من داعش تنظيف أمنه القومي من المتطرّفين الذين يقضّون مضاجعه دوماً في الشيشان التي لطالما شكلت شوكة في الخاصرة، فلربما كان هناك نجاحاً في تصدير المقاتلين من هذه الدولة ومن دول آسيا الوسطى المسلمة إلى العراق والشام. وبالفعل، فعندما أسّس داعش تميّز عن النصرة بأنّ عدداً كبيراً من عناصره ومقاتليه هم من غير العرب، وهؤلاء ليسوا فقط مجرد عناصر مقاتلة، وإنما تبوأوا مناصب قيادية في داعش كأبي عمر الشيشاني.

أكثر من ذلك، ففي المنطق الجهادي السلفي، المقاتل الذي يملك يقينا ما بعده يقين، بأن أبواب الجنة مفتوحة أمامه، لا يبحث عن راتب شهري يدفعه إلى الانتماء لهذا التنظيم الجهادي أو ذاك، لا بل تجده هو يجلب معه كل ما يملك ليمنحه إلى التنظيم، وهو ما فعله الكثيرون من المقاتلين الأجانب في صفوف داعش، خصوصاً الشيشانيين منهم، وهذا منعطف يطرح سؤالاً كبيراً: هل

كان هنـاك فـي الشيشــان من كان يزوّد المقاتليـن بطريقة ما بأموال طائلـة يريـد أن تصـل إلـى وزارة مـال الخلافة؟ هنا يبـدأ الحديث عن التمويل غير المباشر لداعش، أي التمويل السياسي المتأتي من مجندين اخترقوا الشيشان واخترقوا جيوب المتطرّفين في الشيشان.

وبذلك، هل يمكننا القول إن منطق الثأر قد تجسّد بكل أبعاده ومـع كل أطرافـه، فالـكأس التي سـقتها الولايات المتحدة لروسـيا القديمة، جاءت روسيا الجديدة لتسقي الأميركيين منها؟ لكن كيف تمّت الصفقة؟ ومن رعاها؟ وكيف بدأت الأمور تنضج؟ وكم عدد الأشـخاص الذيـن يعرفـون مـا يجري؟ وهل هم بعـدد أصابع اليد الواحدة أم أكثر؟

لندع الأيام تتابع تلك القصة المشوقة، ونشاهد فصولها معاً..

خاتمة

من الأهمية بمكان إعادة التأكيد على أنّ الخطورة في داعش وغيره من التنظيمات المتطرّفة لا تكمن في الفكر المتطرّف الذي تحمله هذه التنظيمات، وإنما في الظروف والحقائق التي تقود الشباب بشكل خاص إلى الالتحاق بهذه التنظيمات والانضمام إليها، فملح التطرّف لا يكمن في الفكر المعتّق المعتنق وإنّما في البحر الشعبي الذي يسبح فيه التطرّف كما في الحيثيات التي تجذب الآخر عندما يجد هذا الآخر أن هذا التنظيم أو ذاك متجاوب لوحده لما بقي في أعماقه من بقايا خيارات.

وقد كنا قد كتبنا قبل ست سنوات في كتاب «الأعاصير.. من سيحكم العالم في القرن الـ21، أميركا أم مفاعيل المقاومة العراقية»، أنه «فيما يتعلق بالإرهاب الذي يمارسه الإسلاميون الجهاديون وعلى رأسهم الشيخ أسامة بن لادن وتنظيمه، يمكن القول أن الممارسات الأميركية منذ هجمات الحادي عشر من أيلول، قد ضاعفت من قوة من يرفع لواء الجهاد كوسيلة وحيدة لردع الولايات المتحدة وثنيها عن سياساتها الإمبريالية والظالمة بحق العرب والمسلمين، وأصبح القضاء على هؤلاء أشبه بالمستحيل، وذلك بسبب تمدّدهم وتجذرهم في المجتمعات العربية، وبسبب التنظيم الدقيق الذي يصبغ هذا التمدّد أو ذاك التجذّر.

الولايات المتحدة، وبالرغم من جميع المحاولات التي لجأت إليها، وبالرغم من الصفقات التي أبرمتها مع تيار ما سمّته بالإسلام المعتدل، ليس فقط عجزت عن مكافحة هذه الجماعات، وإنما أيضاً أدركت وأيقنت بأن هذا التيار العريض أصبح ثابتاً وحيداً في معادلات المخاطر التي تواجهها في المشرق العربي والعالم الإسلامي، وأدركت أيضاً أن تأثير هذا التيار على مشروعها في الشرق الأوسط يقتصر على العرقلة من دون أن يصل إلى حدود العائق القادر على شلّ مشروعها شللاً نصفياً[33].

اليوم وبعد مرور هذه السنوات، نجد الفكر السلفي الجهادي ليس فقط يجدّد نفسه وإنّما يفرز من رحمه تنظيمات في غاية القوة والخطورة، وإذا كان تنظيم الدولة الإسلامية يمثل الجيل الجديد من الفكر الديني المتطرّف، فالخوف كل الخوف من أجيال أخرى ترث هذا الجيل.. وسترثه.

وكل ذلك حصل لأن منطق العلاقات الدولية المطبق والمخالف بل المناقض لما ورد في ميثاق الأمم المتحدة، وبالتحديد مبدأ عدم التدخل، هو من شكّل البذرة الأولى لولادة أجيال جديدة من السلفية الجهادية، والولايات المتحدة والتكتل الغربي الذي يسير خلفها لم يتعقلنوا في سياساتهم وممارساتهم، إذ ظلّت الأحادية القطبية تمارس جنونها في الأرض قاطبة، وهي الأرض التي قبل أن تدور حول نفسها فإنها تنطلق من محور العالم ومركزه أي ما يسمى غصباً بالشرق الأوسط.

إن المسألة غير مقتصرة فقط على المنطق الجائر للعلاقات

الدولية الذي فرضته الولايات المتحدة على العالم منذ انهيار القطب الروسي الثاني، فهناك من عمل من أبناء الجلدة على منح الولايات المتحدة صكّ مشروعية لسياساتها الخفية والمعلنة، فالإخوان المسلمون العرب منهم وغير العرب، صدّقوا عن قناعة أو قلة دراية، لا فرق، صدّقوا أنهم القادرون على إخراج الولايات المتحدة من مآزق ممارساتها عندما يبادرون ليعطوها صكًّا إسلامياً سنياً شرعياً، وهي أيضاً مشت مع الكذبة، فكانت النتيجة داعش والنصرة والله وحده يعلمُ من سيأتي بعدهما في المستقبلين القريب والبعيد.

وكأننا اليوم أمام معادلة دولية أكثر من معبّرة، فإذا كان صحيحاً أن أميركا فسّرت نصوص وبنود وقواعد القانون الدولي تفسيراً يلبّي استراتيجياتها وسياساتها ويتماشى معها، فأيضاً حلفاء أميركا من المسلمين حوّروا كلام الله بطريقة تلبي طموحاتهم السياسية الوصولية، في حين أن أعداءها من المسلمين أعطوا لكلام الله تفسيراً يحجز لهم مقعداً في مجلس المشروعية والشرعية.

بالطبع، كان الجهاديون أكثر براعة من الإخوان المسلمين، فشغف السلطة عند هؤلاء الأخيرين أضعف منطقهم، فذهبوا إلى غير رجعة، على عكس الجهاديين الذي طرحوا أنفسهم كمناضلين ومقاتلين ضد الكفرة على اختلاف أنواعهم وفق تصنيف الجهاديين لهم، وحتى عندما جاؤوا ليطرحوا فكرة الدولة والسلطة ركلوا بأقدامهم المنطق السلطوي الذي ذاب فيه الإخوان أيما ذوبان، ليقولوا إن منطق السلفية يفرض علينا أن نحود إلى منهج الدولة

الإسلامية بمعناها الاصطلاحي أي «الخلافة».

إن الإخوان المسلمين الذين ساروا في موكب التنظير الغربي الأميركي، أي الثورة، انتهوا كما انتهت الثورة التي نظروا لها حالمين أنها ستتمكن من تسييدهم، غائباً عن بالهم أنّ ثقافتنا نحن العرب لا تتلاءم مع النظرية الغربية في الثورة، وناسين أنّنا نحن العرب لم تكتمل شروط نهضتنا الحداثية لابتلاع مفردات وحالات الثورة بمفهومها الغربي، فابتلعتنا هي، ومتناسين أننا نحن العرب، الثورة في قاموسنا تعني أول ما تعني «الأنا».

تلك «الأنا» التي تسيطر اليوم في سوريا وسيطرت في ليبيا وفي مصر قبل السيسي الذي انتبه إلى المسألة عندما هندس خطابه السياسي القائم على المجموع الذي يعني تارة مصر وتارة أخرى الشعب وتارة ثالثة النهضة الاقتصادية. وفي تونس فالأنا من الأساس لم تكن موجودة، لأن الشعب التونسي يعيش في الأساس على الطريقة الفرنسية الغربية، لذلك سبق الغنّوشي ما يمكن أن يأتي عندما نظّر للبيكيني والمايوه على أنهما من مقومات السياحة التي يعتاش منها التونسيون.

السلفيون الجهاديون، لم يعتنقوا الفكر الثوري الغربي النشأة والسمات، فنظريتهم منطلقة من طرفي نقيض الخطأ والصواب، المسلم والكافر، دار النصرة ودار الجهاد، دون حلول وسطى تسمّى في الفكر الثوري الغربي بالمرحلة الانتقالية.

إنها أبرز إيجابيات أو عناصر قوة السلفية الجهادية بقالبها الداعشي الذي قرأ الأحداث جيداً، واستفاد من خطأ الغير،

كل الغير، فالفشل الثوري الذريع والقاتل الذي غطّاه المنظرون للثورات العربية بما أسموه المرحلة الانتقالية، قفز من فوقه جهاديو الجيل الجديد، عندما صدّروا مشاهد الذبح، فمع الذبح لا حرب أهلية انتقالية، لأنه مع الذبح إما أن ترضخ وتسلم فتسلم، وإما أن تُذبح دون خيار ثالث.

وإن هيئات التنسيق الثوري والائتلافات الثورية التي تغطي حقيقة الخلافات الجذرية بين أطراف الثورة وتحوّلت إلى اقتتالات، وعاها الداعشيون جيداً، فكان الحلّ «بالخلافة» التي يجب أن يذوب فيها الجميع، ومن يرفض، فالقتال حلال ضده، لأن الاختراق الثوري ممنوع، فإمّا أن تكون أحد مواطني الدولة الإسلامية وإما أن تقتل.

المسألة ليست مجرد توحّش في القتل والإجرام، وليست مجرد أقلية دينية عولمية تريد قتل الأكثرية العالمية التي تخالفها في العقيدة والدين والمذهب والاجتهاد، كما أنها ليست مجرد أفعال ذبح سادية متطرّفة ناقمة وثأرية، المسألة ليست كذلك على الإطلاق. فأنت مع داعش أمام لعبة قمار بكل ما للكلمة من معنى، في نهاية اللعبة إما أن تنتهي وتموت وإما أن تسود وتحكم وتقيم خلافتك.

مع داعش أنت أمام متغير مستقل واحد وهو إقامة الدولة الإسلامية القوية والقادرة والعادلة، طبعاً من وجهة نظر «الخليفة الداعشي السامرائي البغدادي القرشي»، لكنك أمام متغيرات تكاد لا تعد ولا تحصى، فاليوم تقتضي المصلحة، مصلحة تمتين أواصر

الدولة الإسلامية، أن نجعلك تشاهد فعلة الذبح، لكن غداً نعلمك بالذبح دون أن نريك عملية الذبح بحدّ ذاتها، فأنت أمام متغيّر تابع اسمه فعل الذبح.

ومع داعش أنت أمام حفلة ذبح جماعي للإيزيديين في الأمس، لكنك اليوم أمام فتح رباني، فها هم المئات من الكفرة الايزيديين يدخلون الإسلام ليصبحوا من المعزّزين المكرمين في دولة الخلافة، وبذلك أنت أمام متغيّر تابع ثان اسمه الإيزيديين.

ومع داعش أنت في الأمس أمام مشهد قتل جماعي لأسرى من جيش بشّار الأسد، لكنك غداً أمام أسرى جدد يعلنون الانضمام لجيش الدولة الإسلامية، فأنت بذلك أمام متغير ثالث تابع اسمه الجيش السوري الغر.

ومع داعش الذي يصعب عليه التمدّد المادي إلى لبنان لإكمال قوس من السيطرة، تجد نفسك محكوماً من سلطة لبنانية أضحت قراراتها الكبرى إمّا ردّات فعل على فعلات داعشية أو فعل للوقاية من فعلات داعشية، وبذلك فإن لبنان خرج من انقسامه الثنائي وتبعيته شبه المطلقة لتيارين إقليميين ليدخل عالم داعش، لدرجة دخل فيها السيّد حسن نصر الله عالم المملكة العربية السعودية خوفاً من عالم داعش وأعماله، وهو الذي كان حتى الأمس القريب يهاجم المملكة ويتهمها بالوقوف وراء كل ويلات الدخول والخروج، ولدرجة كسر داعش ميزان التعادل في الخسارة الوطنية، ليكون حاملاً لميزان قوى لسياسيين قرأوا إيجابيات داعش جيداً فقطعوا الطريق كي لا يسلك آخرون سراديب فتحها داعش

كمعبر باتجاه واحد أشبه بمعبر رفح الإنساني.

وبذلك فإن داعش هو اليوم أشبه في سطوته وهالته بالولايات المتحدة في أعين كثيرين، فهو شيطان أكبر من الكبار، لكن كباراً يتمنون الاستثمار في نيل عفوه أو رضاه، لا فرق. وباختصار، فإن داعش هو في مقلب آخر ما، هو الولايات المتحدة لأكثر من إيراني عربي وغير عربي، إذا ما أدركنا أن إيران في الأمس القريب قد نزعت من شوارعها يافطات شيطنة أميركا، لتعلّق بدلاً منها آمالاً كثيراً على محادثات منها فوق الطاولة ومنها تحت الطاولة، بدليل إتهام داعش لتبعيته لهذا الفريق العربي أو ذاك، وبدليل أن راية داعش مدروسة لدرجة أنها محمية باسم الجلالة.

هذا ليس بمنطق اتهامي على الإطلاق، والاتهام إن حصل، فهو أشبه بشرك عظيم، أدرك داعش مسبقاً أن التهافت على الوقوع فيه سيكون شديداً، فاستثمر حتى على التهافت، وتلك ذروة البراغماتية التي أبدع فيها داعش أيما إبداع.

وأنت لست أمام منطق اتهامي، وتتأكد أنه ليس باتهامي، عندما تجد أن الحنكة الدولية في مكافحة داعش تجاوزت وللمرة الأولى حنكة الرئيس نبيه بري في مكافحة التشرذم اللبناني والانقسام الوطني، فحتى القرار الأممي الذي أصدره مجلس الأمن وطبّل وزمّر له الإعلام، لا ينقص من داعش مثقال واحد بالألف من قوته، لسبب واحد فقط، وهو أنّ القرار هذا وإن صدر بموجب الفصل السابع، إلاّ أنّه تحدّث عن ممارسات علنية قد تقوم بها دول أو أطراف في دعم داعش وتمويله، في حين أن التمويل والدعم إن

كان حاصل فعلاً، فهو بالسر المطلق، فمن يغامر ويكشف نفسه كداعم لداعش؟

أكثر من ذلك، فمهما ارتفعت وتيرة أي قرار يتخذه مجلس الأمن لمواجهة داعش، فلا يمكن أن يرتقي لمستوى الحرب التي يتعرض لها داعش اليوم من الجميع، فالولايات المتحدة تضرب داعش، والجيش العراقي يضرب داعش والجيش السوري يضرب داعش والجيش اللبناني أيضاً يُضرب ليضرب، فعسكرياً الكل يضرب داعش، لذلك ما قاله الوزير اشرف ريفي لبنانياً يصلح أن يكون عالمياً، فالحلول الأمنية والعسكرية لا يمكن أن تكون حلولاً يتيمة، لأن المشكلة ليست بداعش النمط وإنما هي داعش..

المشكلة في داعش لأن المنطلقات التي نهض عليها داعش لا يمكن أن تعالجها الحلول العسكرية، وإنما الحلول السياسية والاجتماعية.

الاستضعاف والاستقواء والتهديد والوعيد والإرهابان النفسي والعنفي، المعنوي والمادي، هي العوامل التي كانت أشبه ببذور رشّت في تربتي العراق وسوريا فكان الزرع داعش.

مع القاعدة، كان البحث عن المسبّبات التي اقتنص التنظيم فرصتها ليرفع خطاباً عالي النبرة، وكان العدو البعيد، وكانت حرب القاعدة على الولايات المتحدة التي تحتل أراضي العرب والمسلمين، وحتى اليوم لم تزل القاعدة، لأن العالم بأقطابه الدوليين والإقليميين، وبدوله الفاعلة والمفعول بها، لم يكن جدياً في إزالة هذه المسبّبات، لا بل تكاثرت وتكرّست تلك المسبّبات،

رغـم جـرأة الأمـم المتحدة في تحديد الظـروف المنتجة للإرهاب والمعـزّزة لـه فـي «اسـتراتيجية الأمـم المتحـدة العالميـة لمكافحة الإرهاب»[34]، تلك الاستراتيجية التي وضعت حلولاً لمعالجة هذه الأسباب، لكن أيًّا من الحلول لم يجد تعبيراته على أرض الواقع.

ومـع داعـش، ورث هـذا التنظيم نفس المسبّبات، وطرح هو نفسـه مسـبّبات أخرى لها منطقها الذي يعبّر عن كثير من الأنفس، التي إمّا عبّرت عن صداها بالارتماء في حضن داعش وإمّا شكلت له بيئة حاضنة.

وإذا كانت اسـتراتيجية الأمم المتحدة تحدثت عن احتلالات أجنبية لدول الغير وعن ما أسـمته صراعات طويلة الأمد، فداعش بـدوره يتحـدث عـن احتلالات إسـلامية إسـلامية لأراضـي عربية وإسـلامية، ويتحـدث عـن قتل من مسـلمين لمسـلمين ومن عرب لعرب، ومن تآمر مع الأجنبي ضد العربي والمسـلم. وإن ما نطق وينطق به العسكريون اللبنانيون في تسجيلات النصرة وداعش يعبّر عن ذلك. فهناك عسكري شيعي يطالب أهله وعشيرته وأبناء منطقته الضغـط علـى حـزب الله كـي يخرج من سـوريا وإلاّ سـوف يقتل، وهناك عسكري سني يستخدم لتشكيل رأي عام سني في لبنان ضد حزب الله. كيف الخروج من كل تلك المآزق والمستنقعات؟

المسـألة في غاية الصعوبة عندما يكون القرار السياسـي نابعاً مـن مناصفـة دقيقـة بين الديني والسياسـي، فيأتي الرد بقرار مضاد، يكون نابعاً أيضاً من نفس المناصفة، وما هي النتيجة؟ النتيجة هي أن شـيعة ولو قلة انطلقوا يحمّلون حزب الله مسـؤولية، وسـنّة ولو

قلة يربتون على كتف داعش وغير داعش. وخذْ هذا الأمر مقياساً ووزّعه في العراق وسوريا وإياك أن تنسى اليمن.

وأمـام كل تلـك التداخـلات، هـل تنفـع الحلـول القانونيـة؟ الجواب قطعاً لا، ولا يمكن أن تنفع، لأن الدائن للموت لا يمكن أن يكـون مدينـاً لنص قانونـي يحذّره من عقوبة أقصاها الموت إن أفرغ جعبة إرهابه[35].

وأمام هذا اللامعنى القانوني لمعالجة داعش، عليك أن تبتكر حيلـة مـا تفـكّ بها الاشـتباك بين الديني والسياسـي، فتـدع الديني يتصالح مع الديني ليبقى الصراع السياسي ذات مخاطر أقل ويمكن لملمتها.

وبذلـك، عليـك فـي لبنان مثلاً، أن تنشـئ هيئات دينية ضمن كل طائفة ومذهب، تتولى تقييم سـلوكيات التيارات السياسـية التي تنتمـي إلـى مذهبهـا، هي أشـبه بمحاكـم دينية، هدفهـا أو وظيفتها تفريـغ الخطـاب أو السـلوك السياسـي أو العسـكري لهـذا الفريـق أو ذاك مـن بعـده الدينـي وأسـانيده الدينيـة، وتظهر هذا الحزب أو ذاك بمظهـر الممـارس لأفعـال لا تمثّل أحداً غيره، لأن حكماً دينياً مسؤولاً سيصدر بحقه.

ومـن يقـول بأن سـلوكه هو دفاع عن أهـل مذهبه أو معتقده، فيضعهـم رغمـاً عنهـم في جيبه، تأتي هذه الهيئات الدينية الحكيمة لتقـول لـه، أن لا قيمـة لأي محميـة مذهبيـة علـى حسـاب العيش المشترك وحمايته، وهكذا تكون الإدانة مزدوجة، إدانة وطنية وإدانة دينية، سيّما أن الكل يستخدم الدين كغطاء لتحقيق مآربه.

ونحن هنا لا نتحدث عن حوار ديني، وإنما نتحدث عن إجراءات دينية داخل كل طائفة، تحظى بقبول ديني واسع من الطوائف الأخرى، وهذا القبول ينحي جانباً فتاوى عابرة للحدود لا تأخذ بعين الاعتبار خصوصيات كل دولة، ولا بأس إن تعارضت أحكام هذه المحاكم مع فتاوى تطلق من هنا وهناك، فمثل هكذا تعارض يعزّز العيش المشترك، لأن هذه المحكمة الدينية ستقول إني فضلت مصلحة وطني ومصلحة إخوتي في الوطنية والمواطنية على مصلحة أقراني في دولة أخرى، لأن مساواة المذاهب والطوائف في الربح والخسارة، هي الوجه الآخر لمبدأ المساواة العام الذي نعرفه جميعاً، ولأن داعش تسلّل إلى شوارعنا من اللامساواة القائمة، فجاء ليقول أنا أعيد التوازن لأهله بالسكين.

بالطبع هذه الآلية في تقليل مخاطر داعش يمكن أن تأتي بنتائج إيجابية وأملك يقيناً في ذلك، لكنها آلية ربما لا يمكن تطبيقها في كل البلدان العربية، فلكل دولة عربية ظروفها وسماتها ومشاكلها، لذلك تجد مثلاً أن المملكة العربية السعودية وجدت في المناصحة[36] ما يوفر نصحاً للإرهابيين ومن يفكر أن ينضم اليهم، وتقول التقارير السعودية أن هذا العلاج قد أثمر نجاحاً لافتاً في تقليل مخاطر الإرهاب ومخاطر التجنيد له أو الانضمام إليه، ولذلك وجدنا الجزائر في مرحلة معيّنة اعتمدت قانون الوئام المدني الذي كان كفيلاً بالعفو عمّا سبق وبترك الكثير من المتطرّفين لسلوكياتهم الإرهابية، فتحول الصراع من صراع دموي إلى صراع سياسي.

كل هـذه الحلـول هـي حلول سياسـية الطابع، وقـد أفلحت، ويمكن العثور على حلّ دولي شامل إن صدقت النوايا في مواجهة داعـش وغيـر داعـش، غير أنّ سـوء النوايا وتـورّط دول بالإرهاب لتحقيـق هـدف هنـا أو هـدف هنـاك، سـيزيد مخاطـر الإرهـاب وسيجلب أحفاداً شرعيين للقاعدة وداعش وغيرهما، فهل ستصدق النوايا ويعترف العالم بأنّ هناك مسبّبات حقيقية يجب التصدي لها لاستئصال شأفة الإرهاب؟

هوامش الكتاب

1. «سؤال كبير.. كيف تشكلت داعش»، نواف القديمي، مقال منشور بتاريخ 20 آب/ أغسطس 2014 في الموقع الإلكتروني التالي:
http://www.alaraby.co.uk/opinion/99b08cd2-484b-4e94-850f-c2946ecb648e
2. «داعش مشكلة للانسانية جمعاء»، أمير طاهري، مقال منشور في صحيفة الشرق الاوسط، العدد الصادر في 22 آب/ أغسطس 2014.
3. «بربرية القرن الـ 21 بين غزة والموصل»، الفضل شلق، مقال منشور في صحيفة السفير، العدد الصادر في 25 حزيران/ يونيو 2014.
4. «تحديات داعش (2)»، عبد السلام الوايل، مقال منشور في صحيفة الحياة، العدد الصادر في 16 تموز/ يوليو 2014.
5. المرجع نفسه.
6. «تحديات داعش (1)»، مقال منشور في صحيفة الحياة، العدد الصادر في 15 تموز/ يوليو 2014.
7. المرجع نفسه.
8. المرجع نفسه.
9. مازن شندب، «الاعاصير - من سيحكم العالم في القرن الـ 21 أميركا أم مفاعيل المقاومة العراقية»، دار بيسان، الطبعة الثانية، بيروت، 2008، ص 241.
10. مايكل شوير، «الفوقية الإمبريالية الاميركية، لماذا يخسر الغرب الحرب على الإرهاب»، ترجمة سمة عبد ربه، الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى، بيروت، 2005، ص 41-38.

11. نستخدم تعبير «ذات طابع إرهابي»، لانه لا يوجد حتى اليوم تعريف عالمي دولي واحد حول الإرهاب، وبالتالي نجد انه في ظل غياب هكذا تعريف، فإن هذا التعبير هو الاقرب الى المنحى العلمي.

12. «صحف سعودية تحذر من خطورة داعش»، راجع الموقع الإلكترروني التالي:

http://www.gomhuriaonline.com/main.asp

13. المرجع نفسه.

14. المرجع نفسه.

15. راجع النص الحرفي لخطاب الملك السعودي على الموقع الإلكتروني التالي:

http://www.news-sa.com/snews/6250-2014-08-01-15-12-29.html

16. «تحديات داعش (1)»، مرجع سبق ذكره.

17. راجع النص الحرفي للامر الملكي السعودي على الموقع الإلكتروني التالي:

http://www.assakina.com/news/news2/37378.html

18. «الخطر الطائفي: الارتدادات المحتملة لتنظيم داعش على دول الخليج»، أشرف عبد العزيز عبد القادر، مقال منشور في مجلة السياسة الدولية، راجع الموقع الإلكتروني التالي:

http://www.siyassa.org.eg/NewsContent/2/106/3760

19. المرجع نفسه.

20. «الزعم بعد الفهم منظومة الخلافة الدينية والنظام العربي»، جميل مطر، مقال منشور في صحيفة السفير، العدد الصادر بتاريخ 17 تموز/ يوليو 2014.

21. «الخطر الطائفي: الارتدادات المحتملة لتنظيم داعش على دول الخليج»، مرجع سبق ذكره.
22. «داعش... الطائفية والنفوذ والتمويل والمخاطر»، دراسة منشورة في الموقع الإلكتروني التالي:
http://www.alaraby.co.uk/opinion/4b11469f-34b2-48ad-ab50-a7661f4fb722
23. «التطرف الشيعي أنتج التطرف السني»، عوني الكعكلي، مقال منشور في صحيفة الشرق (اللبنانية)، العدد الصادر بتاريخ 19 أيلول/ سبتمبر 2014.
24. «الحرب السنية - الشيعية حقيقة أم وهم»، عبد الله ناصر العتيبي، مقال منشور في صحيفة الحياة (اللندنية)، العدد الصادر بتاريخ 16 حزيران/ يونيو 2014.
25. إمام حسانين عطا الله، «الإرهاب والبنيان القانوني للجريمة»، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية، الطبعة الأولى، 2004، ص 134.
26. «التطرف الديني والفاشية»، خليل علي حيدر، مقال منشور على الموقع الإلكتروني التالي:
http://www.alarabiya.net/views/2006/08/27/26932.html
27. «داعش: لا صوت يعلو فوق صوت التطرف»، حذيفة ابو الفتوح، مقال منشور على الموقع الإلكتروني التالي:
http://www.islamyun.net/index.php?option=com_k2&view
28. «مات بن لادن عاش البغدادي»، عبد الرحمن الراشد، مقال منشور في صحيفة الشرق الأوسط، العدد الصادر بتاريخ 6 تموز/ يوليو 2014.
29. «لعبة الاسد المالكي مع داعش»، محمد مشموشي، مقال منشور على الموقع الإلكتروني التالي:

http://www.ahraraliraq.com/index.php?page=article&id=32608-

30. «حرب الشرعيات الإسلامية الكبرى»، حسام مطر، مقال منشور في صحيفة الأخبار (اللبنانية)، العدد الصادر بتاريخ 17 تموز/ يوليو 2014.

31. «داعش والمخابرات الدولية.. قراءة في ضوء نظرية حصر الإرهاب الدولي»، أحمد المسعودي، مقال منشور في صحيفة العالم (العراقية)، العدد الصادر بتاريخ 18 أيلول/ سبتمبر 2014.

32. المرجع نفسه.

33. مازن شندب، «الأعاصير - من سيحكم العالم في القرن الـ 21 أميركا أم مفاعيل المقاومة العراقية»، مرجع سبق ذكره.

34. الأمم المتحدة، الجمعية العامة، القرار 288/ 60 الصادر بتاريخ 8 أيلول/ سبتمبر 2006، المتعلق بـ «استراتيجية الامم المتحدة العالمية لمكافحة الإرهاب».

35. راجع في هذا الشأن كتاب الدكتور مازن شندب، «استراتيجية مواجهة الإرهاب»، المؤسسة الحديثة للكتاب، الطبعة الأولى، 2014.

36. راجع برنامج المناصحة كما ورد في «مركز محمد بن نايف للمناصحة والرعاية»، على الموقع الإلكتروني التالي:

http://www.mncc.org.sa/Arabic/index.aspx

في الحديث عن داعش وعن غيره من التنظيمات الجهاديـــة، لكن خصوصاً عن داعش، يجب أن تميّز بين طبقتين، فهناك أولاً القيادة القابضة والممسكة بتلابيب التنظيم وهذه عادة يكون لهـــا برنامج سياسي ســـري لا يضطلع عليه بقية افراد التنظيم الذيـــن لا يجب ان يعرفوا أصلاً أهداف التنظيـــم، فما يدور في رأس أبي بكر البغدادي هو أمـــر مختلف تماماً، هو أمر ربما لا يكون مرتبطاً في الأصل بفكرة الجهاد بمعناها الدينـــي فقد يكون الجهـــاد وسيلة لتجميع القوات والأمـــوال لتحقيق طموحات أخرى أو أهداف محض سياسية أخرى. وهناك ثانياً القـــوات الارهابية المسلحة التي تقاتل وتقتل وترعب لتحقيق الاهداف المرسومة لها. وفي رأس هذه القوات فإن القتال هو أمر إلـهي وموجه ضد الكفـــرة أو داعميهم أو حاضنيهم أو المشكلين لعناصر قـــوة لـهم، وموجه ضد الذيـــن قد يشكلون خطراً علـــى التنظيم، وفي كل الأحـــوال فهو القتال ا... لو اجتمع الانس والجن علـ... س ذلك لما نجح أحد في اقن...



الدكتور مـازن شنـدب

- باحث في قضايا الارهاب.
- رئيس مركز الانسان لبحوث الارهاب.
- استاذ القانون العام في الجامعة اللبنانية.
- حائز على شهادة دكتوراه في الحقوق «القـانـون الـدولي الـعـام» من جامعة بيروت العربية بدرجة جيد جدا عام 2011 وموضوعها «السمات القانونية والدولية لمكافحة الارهاب».
- مؤلف كتاب «الاعاصير - من سيحكم العالم في القرن الـ 21 أميركا ام مفاعيل المقاومة العراقية؟»، دار بيسان، بيروت، الطبعة الاولى (2007) والطبعة الثانية (2008).
- مـؤلـف كـتـاب «استراتيجية مواجهة الارهــاب»، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت، 2014.
- لـه مجموعة من الـدراسـات والابـحـاث والمقالات في الصحف اللبنانية والعربية والغربية.





ISBN 978-614-01-1365-7
9 786140 113657





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

